جواد المرابط

التصوّف

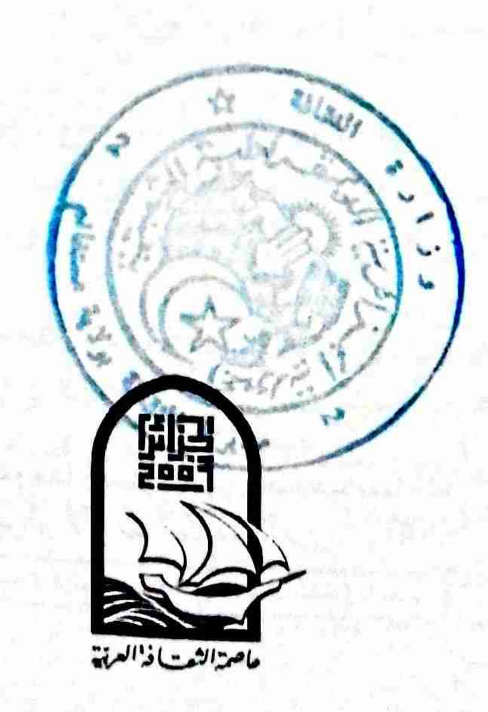
و الأمير عبد القادرالحسني الجزائري



جواد المرابط

التصوّف

و الأمير عبد القادر الحسني الجزائري



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

مباحث الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الإهداء ...

الى عباد الرحمن الذين سموا على دنياهم وتغلبوا على شهواتهم ، وجلت نفوسهم عقيدة ان لا اله الا الله ، واشرقت عليهم فيوض الرحمة واسرار الحكمة من العبادة ، وجمعتهم عقيدة ان الناس لو تفكروا في عظمة الله لما عصوه ، وانه ما من نجوى بين المرء وقلبه الا وهو شاهد عليها ، ولا من همسة بين صديقين الا وهو عليم بها ، وما من جارحة من جوارح البدن ولو في ستار من الليل الا وهو شاهدها ومحاسب عليها ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، يؤمنون بان وراء هذا الوجود قوة عليا مدبرة رحيمة ، والروح البشرية منبعثة من هذه القوة العليا ، وسعادتها ان تحوم حولها وتحيا في ظلالها . وعلى هذا فليس الانسان ماءً وطينا ، ولكن سر قدسي ، وفيه نفحة ربانية ، وكل شيء خلق ليمنحه ما اودع الله فيه من طاقات ، وان اول مراتب السلوك ان يبقى حسن الخلق سخي النفس سليم الصدر طيب الكلام يعتبر النصح فريضة ولا يغضب الا لله .

الى عباد الرحمن الذين يؤمنون بكل ذلك اهدي هذه المحاضرة .

دمشق في ١٦ ربيع الاول ١٣٨٦ الموافق ٤ تموز ١٩٦٦

جواد المرابط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين ، وعلى المبعوث رحمة من الله ، عليه وعلى صحبه وعلى كل من ارسلته العناية ، باكرم رسالة وغاية ، افضل السلام وازكى الصلاة .

واما بعد فان سر نهضات الامم هو ان لها عقيدة تتبلور بها مقاصدها وآمالها ورسالتها في الحياة ، وتتماسك بين آحادها على تلك العقيدة ، حتى اذا ما تحدتها احداث كان لها من تماسكها ما به تتغلب عليها .

ونحن امة مقياس مراوحتها بين التقدم والتقهقر ، بين رفعتها وانحطاطها ، انما كان بمقدار تمسكها او اهمالها ما تحمله من امانة كبرى قادها لتحقيقها نبي كريم ، وكونها كأمة كتاب رباني منزل .

وفي هذه المحاضرة ترجمة لبعض معاني تلك الرسالة وهي المعاني الصوفية، كما فيها ترجمة لحياة رجل عاش على تلك الرسالة ، فبرز للتاريخ على ابهى كمال في جلال وسموق ، وهو الامير عبد القادر الحسني الجزائري قدس الله سره .

ومن ثم فهذه المحاضرة ليست عن موضوع تحيي معرفته القلوب ويشعر الانسان فيها بحياة القداسة، بل فيها فوق هذا ما يجعل الفرد اكثر انسانية واسعد نفسا وانقى ضميرا ، وتزوده بافكار ومفاهيم تهيئه عن جدارة ليكون عنصرا عاملا لمجتمع تسوده الامانة ، وتبرز عظمته بالكمال الروحي والرحمة نحو كل شيء في الوجود يسري فيه سر الحياة .

وعن حب واخلاص ويقين اقول : اذا ما طغت على قوم الأنانية ، وتمزق جمعهم بين طبقات ، وقامت العلاقات فيهم على نباح الشـــهوات وازيز العتو ، وانتشرت فيهم احقاد باغية واهواء معربدة ، وافلتت دفة سفينتهم من يد الايمان، وبالتالي فقدوا الهدوء والسلام ، مايكون لهم خير من الرجوع الى نوع من المعرفة التي تجدد فيهم الأمل والرجاء ، بتغليب ارقى عناصر الانسان على ادناها ، حتى تصبح الحياة على صياغة رفيعة من الجمال والسمو ، خليقة بالخلود ، ليس فيها الحكم لذي ضمير كنود بل للخالق المعبود .

جواد المرابط

* * *

المحاضرة الأولى

(١)

ايها الملا الكريم :

يروى عن الامام ابي حنيفة النعمان انه لما وصل في تدريسه الى موضوع العتق تأخر عن التدريس مدة اسبوعين •

اعتذر عند انقضائها عن انقطاعه عن التدريس ، بانه لايريد ان يدرس عن موضوع لم يتحل هو منه بفضيلة ••• وعرف بعدئذ انه سعى حتى جمع مالا واشترى به رقيقا ثم اعتقه •

لم يشأ الا ان تصدق افعاله اقواله •

فهل ترون ، وانا الذي سأحدثكم عن التصوف ، ان آتيكم بجبة صوف ، وعلى كتفي ركوة وبيدي مسبحة ، وانا حافي القدمين ، وعلي عمة خضراء ؟ اي على الحال التي يتصور انها هي صورة المتصوف•

اذا وجد منكم من كان يظن انها هذه صورة الصوفي فقد اخطأ •

لان التصوف تسام بالروح فوق كل ماديات الارض وشهواتها • لان الصوفي ، كما يقول اديب الفلاسفة وفيلسوف الادباء ابو حيان التوحيدي ، هو ذلك الانسان الكبير الذي يتخطى الحدود التي رسمتها للنوع البشري ماديته مصداقا لقول النبي الكريم (ان الله لاينظر الى اجسادكم ولا الى صوركم وانما ينظر الى قلوبكم•) •قال الامير عبد القادر في الموقف السابع والثمانين من كتابه المواقف تفسيرا للحديث (ان الله تعالى يرى ويبصر جميع الاشياء حال عدمها وحال ايجادها ••• واذا كان الجسد في المسجد والقلب في السوق ، او كان الجسد في احد الاماكن الشريفة ، مكة او المدينة ، او بيت المقدس ، والقلب في غيرها من المشرق او المغرب فلا ينظر الله تعالى الى الجسد ، بمعنى انه لايبالي به حتى يتوجه اليه بالنظر الخاص والرؤية الخاصة ليفيض عليه من خيراته وانواع كرامته وتجلياته ، اذ الانسان ما حصل له الشرف على جميع المخلوقات بحسن

شكله وصورته ، فان الصورة في الحائط او الورق مثله ، ولا بكبر جسمه فان الفيل اكبر منه ، ولا بشجاعته فان الاسد اشجع منه ، فما كان له الشرف الا بانسانيته وهي قلبه •

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها   فانت بالقلب لا بالجسم انسان

فلا يقبل الحق تعالى الاعمال الصالحة الا تبعا للقلوب ولا يعاقب على الاعمال السيئة الا مع القلوب ، والقربة لاتكون قربة الا مع النية (انما الاعمال بالنيات) بمعنى حضور القلب المستلزم لمشاهدة الرب •)[1]

فالتصوف على هذا طهارة باطنية اي طهارة القلب والنفس والضمير ، وهو طهارة ظاهرية اي طهارة اليد واللسان والجوارح ، ثم هو رحمة عالية بكل ذي كبد حي ، وكل شيء في الوجود تسري فيه الحياة، على عقيدة ان (الخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله) و (ان الانسان اخو الانسان حب ام كره) ثم هو تأمل في كتاب الكون ليرتفع الناس فوق الحياة ويتجهوا الى ربهم في محراب الطهر ليفيض عليهم منه النور المشرق • قال قائلهم :

ليلي بوجهك مشرق   وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا   م ونحن في ضوء النهار

ولكن هذه الصورة نجد مثلها او مايقاربها لدى كثير من رجال الكهنوت المؤمنين في جميع الملل والاديان • وان من اروع ما تمثله هذه الصورة ما قرأناه عن غاندي • وسيرته معروفة •

فقد سئل عن السر في ان الانكليز لم يستطيعوا ان ينالوا منه او يخضعوه لسلطانهم مع ضعفه وقوتهم فقال (يرجع ذلك الى سببين : الاول : اني لا املك شيئا يستطيع الانكليز ان يأخذوه فحرصا عليه اخضع • والثاني : اني لا اطمع في شيء يستطيع الانكليز ان يمنعوه عني وطمعا فيه اخضع) •

---

(١) انتهى قول الامير •

(٢)

بيد ان هذه الافكار الصوفية اذا قلنا بوجود ما يشابهها لدى كثير من الملل فليس معنى ذلك ان ملة نقلت عن اخرى • اذ ليس التشابه بين مذهبين دليلا على انهما من اصل واحد • ذلك لان الاسباب المتشابهة تؤدي الى نتائج متشابهة في كل قطر وفي كل عصر •

هذا وان التصوف الاسلامي مما لاشك فيه اخذ مبادءة من الكتاب والسنة، ووجد المتجهون الى المعاني الروحية في الجماعة الاسلامية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكان يطلق عليهم (اهل الصفة) واسوتهم في اعمالهم كانت سيرة النبي الكريم الذي كان في سمو نفسه وعظمة روحه يتقلل من متاع الدنياويحقر كثيرا من زينتها وزهرتها وكان في خاصة نفسه يكثر الصوم والتهجد ، ويحث على مراقبة النفس والفكر والذكر ويحذر من الغفلة والهوى• علما بانالتصوف الاسلامي ازداد بما يلائم مقاصده من غير الملل التي دان علماء فيهم بالاسلام فنقلوا للاسلام بعض ما احتفظوا به من معتقداتهم التي وجدوا لها في القرآن المجيد واحاديث النبي الكريم ما يؤيدها • مع العلم بان الجنيد والغزالي وسهل التسترى والحارث المحاسبي وعبد القادر الجيلاني واحمد البدوي رضي الله عنهم وامثالهم كثير ينكرون ان يكون استمداد طريقتهم الا من الكتاب والسنة ، وينفرون من ان يدخل على طريقتهم ما لاصلة له بالاسلام من افكار او سلوك ، مع تسليمهم بان هنالك اشارات والهامات عن حقائق يدركونها ببصائرهم ببركة مسيرهم على الكتاب والسنة ومن ثم فهم ملهمون •

هذا وان في التصوف الاسلامي مايزيد فيه على معنى اي تصوف آخر •لان الاسلام اولا في جوهره شريعة دنيوية واخروية فهو يأمر بالعمل والجهاد ، والتمتع بالحياة دون اسراف ولا عدوان ويعد المحسنين بالرضوان والتمكن على هذه الارض• وفي القرآن الكريم (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة

الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) وقال تعالى (وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الاخرة ، ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا ، واحسِن كما أحسَنَ اللهُ اليك) .

قال الامير عبد القادر في الموقف التاسع والستين: قال تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا باموالهم وانفسهم) ، ففي الآية الحث على المجاهدة والرياضة وانفاق المال والنفس . والمراد من المجاهدة هنا الجهاد الاكبر الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام لاصحابه الكرام ، (رجعتم من الجهاد الاصغر ، الى الجهاد الاكبر) ، اي ابذلوا جهدكم وطاقتكم وما زاد على حاجتكم من اموالكم في وجوه البر وانواع الخيرات ، لان السالك اذا كان له مال زائد على ضروراته تعين عليه اخراجه في وجوهه ولا تغنيه مجاهدة نفسه بغير اخراج المال الزايد في انواع المجاهدات والرياضات . قيل لذي النون رضي الله عنه : (ان فلانا له مال كثير ولا يخرج منه شيئا في وجوه البر وهو يصوم النهار ، ويقوم الليل) فقال (مسكين ترك حاله ودخل في حال غيره)[1].

والامر الثاني الذي يزيد فيه معنى التصوف الاسلامي على غيره من التصوف المعروف لدى غير المسلمين هو ان الشريعة حددت للمسلمين واجبات اجتماعية، وفرضت عليهم ان يكون معنى التصوف انه قوة روحية ترتفع في وجه كل طاغية وضد كل ظلم وعدوان ، لاتفتنهم رغبة ولا تهولهم رهبة ولا يخشون في الحق لومة لائم ، قال تعالى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون) وقال الرسول الكريم (الساكت على الباطل شيطان اخرس) (واذا رأيت امتي تهاب ان تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم) .

فالاسلام يعتبر من العبادة عمل المعروف والدعوة الى الخير ودفع المظالم والتكسب من الحلال والكدح في الارض ،وهو لايفرق بين العبادة والعمل لخير

---

(١) ملخصا عن المواقف .

الامة وحمايتها والدفع عنها • وقد ورد في الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه، وهو اضعف الايمان) والتغيير باليد هو للسلطان والحكام الذين جعل لهم ذلك، والتغيير باللسان هو للعلماء الذين عرفوا بالعلم والتظاهر به بين العوام ، والتغيير بالقلب هو لعامة المؤمنين العارفين بالمنكر ، وهو ان يكره بقلبه هذا الفعل او القول المنكر في الدين •[1]

وتحت ظلال هذه العقيدة استطاع رجال امثال ابي حازم الصوفي وعزالدين بن عبد السلام وعمرو بن عبيد والامام الاوزاعي وابي نصر الطائي وطاووس اليماني ان يكونوا كالسيف في وجه بغي جبابرة وظلم عتاه والحصن الحصين الذي يلوذ به كل مظلوم ومستضعف •

وتحت ظلال هذه العقيدة قال الامير عبد القادر عليه رحمة الله ورضوانه:

يا عابد الحرمين ! لو أبصرتنا ... لعلمت انك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ، ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا ... رهج السنابك ، والغبار الاطيب

اذا كان غاندي قال يعبر عن تصوفه ومذهبه الروحاني (ان سبب عجز الانكليز ان ينالوا منه ويخضعوه لسلطانه لانه لايملك شيئا ولا يطمع بشيء يستطيعون ان يمنعوه عنه) فان مصدر شجاعة الامير عبد القادر هو ان قلبه كبير يستعصي اذلاله ، وروحه عالية لاتخضع الا لله ، على عقيدة ان الانسان عبد لما يشتهي وعبد من يخاف وعبد من يطمع فيه ، فمن ارتفع فوق الاشتهاء والخوف والطمع ، وآمن بالله انه وحده الخالق فاذا توجه الى الصلاة فما يرى قبلة بل يرى امامه الله ، واذا حج فما يرى كعبة ولكن يرى رب الكعبة ، ويؤمن بان واجب الوجود مع كل موجود ، وانه على كل شيء قدير ، وهو الباطن الظاهر، لم يكن ذلك الانسان عبداً الا للقادر •

---

(١) ملخصا عن المواقف •

وصفوة القول اذا كان التصوف لدى كل امة عبارة عن مثالية اخلاقية ايمانية صاعدة سامقة سموقا يرتفع بالنفس الانسانية الى اعلى الكمالات واطهر الصفات ، ويرى متصوفوها في الاخلاق تقربا الى ربهم حتى يردون نفوسهم الى الله طاهرة كما تقبلوها منه طاهرة ، فان التصوف الاسلامي يزيد على هذا كله ، ان فيه جهادا ومجاهدة وله آداب خاصة في الفتوة وبرسالة الانسان في الكون وفي معنى الوحدة الدينية • وسوف آتي بشواهد على ذلك بمختارات من كتاب المواقف للامير الجليل العارف بعلوم الباطن والظاهر الامير عبد القادر •

(٣)

وصفت الامير بكلمة (العارف) لانها هي الكلمة التي تواضع على تسميتها علماء التصوف الاسلامي على نوع من الرجال قال قائلهم(لو يعرف الملوك مانحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف) فهم الذين ملأوا قلوبهم معرفة بالله وهياما بمحبته على مثل ما قاله الامير قدس الله سره :

عن الحب مالي كلما رمت سلوانا ... ارى حشو احشائي من الشوق نيرانا؟
لواعج ، لو ان البحار جميعها ، ... صببن ، لكان الحر اضعاف ما كانا
وان قلت يوما : قد تدانت ديارنا ، ... لأسلو عنهم ، زادني القرب اشجانا
فيزداد شوقي ، كلما ازددت قربة ، ... ويزداد وجدي ، كلما زدت عرفانا
أقول لهم : من ذا الذي هو جامعي ؟ ... ويأخذني عبدا مدى الدهر حلوانا ؟

فلفظ (العارف) هنا هو الذي ينطبق على الأمير عبد القادر كل الانطباق • و « العارف » كما فسر معناه ابن سينا في الاشارات هو الذي (يريد الحق الاول لا لشيء غيره ، ولا يؤثِر شيئاً على عرفانه ، انه لايعبده لهدف آخر يرجوه من ورائه ، انه لايجعل الحق واسطة لاجر يناله او مثوبة يطمع فيها ، ان الحق غايته ، انه مبتهج به ، لقد عرف اللذة الحق وولى وجهه سمتها فكان من المستبصرين بهداية القدس) •

ثم قال ابن سينا (ان العارف دائما طلق الوجه بسام المحيا ذلك انه دائما فرح بالحق ، بل انه فرح بكل شيء لانه يرى الحق اينما ولى وجهه والناس عنده سواء .... والعارف مستبصر بسر الله في القدر فهو لا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة ، واذا امر بالمعروف امر برفق ناصح لا بعنف معير ...

و « العارف » شجاع ، وكيف الا وهو بمعزل عن خشية الموت .. ؟
وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل ..؟
وصفاح ، وكيف لا ونفسه اكبر من ان تجرحها زلة بشر . ؟
ونساء للاحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق .؟ (١)

ولكن (العارف) له شروط وعلامات قال الامير في الموقف المابة والثلاثة والاربعين : قال تعالى (فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحي الارض بعد موتها، ان ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير) المخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن المرادون . امر تعالى ان لايصدق كل مدع ولا يتبع كل ناعق، ولكن ينظر الى وجود اثر الرحمة وعدمه ، فتصدق الدعوى او تكذب ، فمن ادعى ان الحق تعالى اختصه برحمة من عنده وجعله من اهل حضرته ، ينظر في دعواه ، فان ظهر عليه اثر الرحمة، وهو ادرار العلوم الربانية الوهبية والاسرار العرفانية الغيبية ، كما قال في الخضر عليه السلام،(آتيناه رحمة من عندناوعلمناه من لدنا علما)، وقال نوح عليه السلام ، (واتاني رحمة من عنده فعميت عليكم) فذلك الصادق في دعواه ، فليلبه من ناداه ، فانه على بينة من ربه ، وتلاه شاهد منه . ومن لم يظهر عليه اثر الرحمة الاختصاصية وكان بعد دعوى رحمة الحق تعالى اياه كما هو قبلها ، فهو مفتر كذاب .

فحياة ارض النفوس ليست الا بالعلم الرباني . قال تعالى (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) ولا يحييهم الا العلم وقال سبحانه (او من كان ميتاً) بالجهل (فاحييناه) بالعلم ، وهو النور الذي يمشي به في الناس ، فحياته

---

(١) الى هنا انتهى قول ابن سينا .

نفس جعل النور له (كمن مثله في الظلمات) وهي ظلمات الجهالات، فمااحييناه ولا جعلنا له نورا ؟ •

وافرد تعالى النور وجمع الظلمة لان النـور الذي هو العلم يهـدي الى الصراط المستقيم ، وهو واحد صراط المنعم عليهم ، اهل السعادة • والظلمة التي هي الجهل ، متعددة ، لانها تهدي الى سبل الغواية كما قال تعالى (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) •

وفي قوله تعالى : (ان ذلك لمحيي الموتى) ، اشارة الى من ظهر عليه اثر رحمة الله الاختصاصية ، واحياه الله تعالى بالعلم الرباني بما حصل له من الرحمة التي ظهر عليه اثرها •)[1]

(٤)

يذهب المتصوفة الى ان الكون الذي نعيش فيه وما فيه من جمال رائـع وترابط بين اجزائه وانسجام بين خلاياه تفيض جنباته بالحياة ، ومن ورائه تتجلى ارادة حكيمة منظمة ومبدعة وقادرة وان هذا الكون الذي نحن جزء منه انما يكمل وجوده بوجودنا ، وجميعنا بما فينا من طاقات وروح وفكر وحركات نغمات تلهف للمبدع الخلاق • قال سبحانه : (تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن) وقال جل جلاله (الله الذي خلق السموات والارض ، وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) •

وعن هذا المشهد الذي ذكرته عن الكون يقول (اينشتاين) (ان الانسان الذي لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال العالم ، ولم يشعر نحوه بالروعة والايمان هو حي حكمه حكم الميت) •

---

(١) انتهى قول الامير •

ليس الكون لنا بعدو ولا بيننا وبينه تضاد ، بل ان كل ماهو موجود يمكننا نحن الذين وهبنا الله العقل والكفاءة الفكرية ان نطوعه ونسخره لسعادتنا ، وان نكيفه كما نكيف كياننا ، لنصبح احسن مما نحن عليه . لقد خلقنا الله على تلك الصورة . قال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه :

وانت الكتاب المبين الذي باحرفه يظهر المضمر
وتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

فالعارف كما قال الشيخ محيي الدين ايضا : (يخلق بهمته الاشياء كالصور الخيالية في مخيلة المتصورين ؛ ومعني هذا ليس هو عين الكون المبصرة بل اليد العاملة فيه) وميزة المتصوف في تلك الحركة عدا عقيدته هذه ، هو انه ليس الذي يحركه الطمع المادي ، بل الذي يحركه روح التعبد والمحبة ، على اعتبار ان الانسان تاج الخليقة وآخر مبدعاتها ، وروحه قابلة لكل كمال ، وعامل الحركة فيه محبة الله ، التي تنبثق منها محبته للعالمين في صورة عبادة ، قوامها ادراك العظمة العالية المتجلية في كل ذرة من ذرات الكون ، ومن ثم يتوجه الى الله في مناجاته على مثل ما كان الامير عبد القادر يتوجه فيقول :

(اللهم يا من عمت فواضله واتنعم بعطاياه ، يا من لايجحدك جاحد الا زايلته الطمأنينة وأوحشه القنوط ، اسألك ان تفتح لابصارنا بابا الى معرفتك ، ولمعرفتنا افهاما الى النظر في نور حكمتك . اياك اسألك يا الهي فلا تخيبني ، وفي فضلك ارغب فلا تحرمني ، انا المؤمن يا عظيم بانه لايستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك . فعمياء عين لاتراك عليها رقيبا ، وخاسرة صفقة عبد لايجعل له من حبك نصيبا . أمت يا الهي قلبي عن البغضاء ، واصمت لساني عن الفحشاء ، واخلص سريرتي وعلانيتي من علائق الاهواء ، واكفني بأمانك عواقب الضراء).

اعود للقول بان المتصوفة المسلمين ، والامير عبد القادر عليه رحمة الله يعتبر من اقطابهم ، اذ يجدون الكون وحدة متماسكة وهو ينفعل انفعالا باطنيا بكل ما يحدث فيه ويتأثر تأثرا مشاهدا لبصائرهم بما يصيب اية وحدة من

وحداته ـ فهم وجدوا من واجبهم محاربة الشر المادي والعدوان والظلم كما يحاربون الاجرام والمآثم والشهوات لانها كلها من فصيلة واحدة تدمر الروح الانساني وتؤثر في الكون تأثيرا شريرا مؤذيا • ومن ثم فهم لايحاربون انسانا على انه مجرم او ظالم او مستعمر بل يحاربون الاجرام والظلم والاستعمار الذي يكون فيه ايذاء وشر وظلم ••• ومن هنا كان حرب الامير عبد القادر للفرنسيين عندما اعتدوا على بلاده وارادوا استعمارها فهو لم يحارب فرنسا ولا حارب الفرنسيين بل حارب من حمل السلاح منهم فجاء الجزائر مقاتلا ومستعمرا • وهي حرب دامت ستة عشر عاما قال خلالها قصيدته التي فيها :

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي ... وبي يحتمي جيشي، وتحرس ابطالي
وعني سلوا جيش الفرنسيس تعلموا : ... بان مناياهم بسيفي وعسالي

ولكن الجزائر اذ لم تكن الا جزءاً صغيراً من العالم الاسلامي في شمال افريقيا ، ذلك العالم الذي كان متوزعا بين حكام وملوك كل منهم كان يعمل لقطره ولتدعيم عرشه ولضمانة مصالحه المحلية كانت الجزائر اول بلد احتله المستعمرون في شمال افريقيا ليتبعه في الخضوع للمستعمرين كل من تونس ثم مراكش فمصر فالسودان فطرابلس الغرب • ومن ثم اثبتت تلك التفرقة التي ينهي عنها الاسلام ما ينبغي ان يكون المسلمون عليه من وحدة الكلمة وبحيث لا تتخطفهم الاهواء •

(٥)

كان مما اتفق عليه الامير عبد القادر مع الفرنسيين ان يتركوه حرا يسافر مع اهله ومن يتبعه من قومه الى الاسكندرية او عكا ، غير انهم خدعوه بانهم خصصوا له مركبا حربيا لينقلوه فيه ، وكان معه ما يقرب من ثمانين شخصا فنقلوهم جميعهم الى (طولون) ، ثم نقلوه بعد ستة اشهر الى (امبواز) حيث سجنوه مايقرب من خمس سنوات عصفت عليه خلالها اعاصير من البؤس والاحقاد الباغية[1] •

---

(١) جرت المفاوضة بين الامير وبين الجنرال لاموريسيير ، على انهاء الحرب • وكان هذا سنة ١٨٤٧ واتفقا على شروط منها :

١ – ان ينقل الامير واسرته الى عكا في بلاد الشام او الاسكندرية في مصر .
٢ – ان لا يمنع احد من مرافقته ممن اراد من جنود وضباط .
٣ – ان يكون كل من يبقى في البلاد امينا على حياته وماله .

وسار الامير مع صحبه واتباعه الى مقام سيدي ابراهيم المرابط وصلى في المقام ، ثم تابع سيره في موكبه الى مكان قريب من مرسى الغزوات ، واستقبله فيه الدوق هنري دومال حاكم الجزائر ، والجنرال لاموريسيير وغيره من القواد والاعيان . وبعد ان جلس الجميع ، قال الامير مخاطبا الدوق :

« لقد قدر الله تعالى ان تكون هذه الساعة ونحن على ما نحن عليه . انني اخذت من الجنرال لاموريسيير عهودا ومواثيق لاشك ان ابن ملك فرنسا سيحافظ عليها » .

فاجابه الدوق مؤكدا عهود لاموريسيير ضامنا لها . ثم قدم له الامير سيفه قائلا :

« انني احسب ان هذا شرف وفخر حصلت عليه فرنسا » .

واهداه جواده الادهم وطبنجته وساعته ، وقام الدوق بدوره وقدم للامير طبنجته وساعته . ثم سأله عمن يريد ان يرافقه ، فذكر له اهله واتباعه وعددهم مائتا شخص ، وكان ذلك في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٤٧ . وبعد ثلاثة ايام ركب الامير البارجة التي اعدت له وكان اعتقاده ان البارجة ستتجه به نحو بلاد المشرق ، كما تعهد له الدوق دومال غير أنها توقفت في مدينة طولون . وفي مجلس النواب الفرنسي بلغت معارضة النواب للحكومة بشأنه اشدها ، وقام النائب الفرنسي الشاعر الفونس ده لامرتين يعلن باسمه وباسم رفاقه « النواب الاحرار » بان وجود الامير عبد القادر في الاسكندرية اشد خطرا على نفوذ فرنسا ومصالحها من بقائه حرا في الصحراء . ثم نقل الامير بعد ذلك الى مدينة (امبواز) من مقاطعة اورليان ، وبقي فيها خمس سنوات.

وفي ١٠ كانون الاول عام ١٨٤٨ انتخب البرنس لويس نابليون رئيسا للجمهورية الفرنسية.

وفي ٢٤ منه شكل مجلسا خاصا برئاسته للبحث في قضية عبد القادر والعهود التي قطعت له.

وفي ١٦ تشرين الاول قصد نابليون الى مدينة امبواز وزار فيها الامير ، وبعد ان رحب به عبد القادر ترحيبا حارا ، تكلم الرئيس مثنيا على « خصال الامير ومزاياه ، وعلى مواقفه في دفاعه عن وطنه ودينه ذلك الدفاع الباسل الشريف » . وقال : « انني لا اعتبرك هنا اسير حرب بل انت ضيف عزيز علينا . وقد كنت اتمنى لو انني استطعت انقاذك من ايدي الذين لم يفوا بوعدهم لك. ولكن ذلك لم يتسن لي من قبل مع الاسف . اما الآن وقد شاء الشعب الفرنسي ان ينتخبني رئيسا له فقد رأيت ان الوقت الذي يجب ان احقق فيه رغبتي قد حان .

وبعد عودة نابليون الى باريس . دعا الامير الى زيارته فيها فلبى الدعوة . واستقبله نابليون في قصر سان كلو ، وقدم له الامير كتابا ضمنه شكره على مالقيه من رعاية البرنس الرئيس ، وتعهده بالمحافظة على شروط التهادن التي وضعت بينه وبين رجال الحرب الفرنسيين .

فاجابه نابليون مثنيا على المواقف الباسلة التي وقفها في دفاعه عن بلاده ، وعلى شجاعته ورباطة جاشه في تحمل اساءات السلطات الفرنسية السابقة خلال وجوده في المنافي ، ومعتذرا لوقوع هذه الاساءات ، آسفا لنكول الحكومات الفرنسية عن تعهدها باطلاق سراحه .

وبعد ان قضى الامير في باريس بضعة ايام ، جاء لزيارة نابليون مهنئا ومودعا ، وكان قد انتخب في هذه الفترة امبراطورا على الفرنسيين . فشكره نابليون على تهنئته وقدم له سيفا هدية منه ، وقال له : « لقد سلمت سيفك الى فرنسا ، ولكن فرنسا لاتريدك ان تخرج من بلادها بدون سيف وهاانني اقدم لك هذا عوضا عن ذاك » .

وقد سمعت من المرحوم عمي السيد يوسف المرابط وهو من مواليد الجزائر انه سمع من ابيه عبد الرحمن المرابط[1] وهو صديق الامير ورفيق صباه ان الامير انتهى امره الى الافق الروحاني المشرق مذ كان في السجن، عندما ضاقت عليه الأرجاء متواثبا مع وقدة الاضطرار تارة ووقدةالشوق تارة . والحادثة يومىء اليها الامير في الموقف المائتين والحادي عشر من كتابه . ولندعه عليه رحمة الله يحدثنا بلغته الرصينة العذبة عن تلك الحال فهو اقدر على التعبير بل ان لكلماته ما يتسلل الى القلب بالنشوة الكبرى قال : (دخلت مرة خلوة فعندما دخلتها انكسرت نفسي وضاقت علي الارجاء وفقدت قلبي ، واذا المعرفة نكرة والانس وحشة والمطايبة مشاغبة ، والمسامرة مناكرة ، فكان نهاري ليلا ، وليلي ويحا وويلا،وتمكن الشيطان بالتمريج والتخليط ، واي قربةاردتها ابعدت بها ، فلم يبق معي من انواع الصلات الا الصلاة ، وفي اثناء هذا الابتلاء رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، دخلت عليه بيتا كان صلى الله عليه وسلم جالسا فيه مع جماعة ، فبنفس الاونةالتي فيها رآني اخذ بطرفي مسبحة كانت في يده الشريفة ورفعها الي وقال (والدعاء). ففهمت من اشارته صلى الله عليه وسلم بقوله و (الدعاء) ان الخطب جسيم ، والامر عظيم لما ورد ان(الدعاء يدفع البلاء) فكان بعد ذلك شغلي الدعاء والتضرع وكشف الرأس ، وكانت ترد علي الواردات في الوقائع مشيرة بالصبر) .

وقد كتب المرحوم عمي على الهامش(ان الامير كان يخفق قلبه لرنين الشعر وتنتفض روحه بالهاماته وانه فهم من شعر الشيخ محي الدين بن عربي مايصور نفاد الصبر من اضطراب الحال وان ليس له الا الصلاة حيث يضع المرء يد الجسم على القلب ثم يشدد بيد الروح عليها قال :

---

(١) هو يوسف بن عبد الرحمن المرابط وهو اخو جدي يحيى ولدا في الجزائر وكان عبد الرحمن الصديق الحميم للامير وقد كان سبب هجرته الى دمشق ماكتبه اليه الامير للهجرة اليها وقد كان مترددا في هجرته بين المدينة والقاهرة بعد ان استولى الفرنسيون على الجزائر . وكان جدي يحيى عمره ١٨ سنة واخوه يوسف عمره ٢٠ سنة عند هجرتهما الى دمشق .

ذبت اشتياقا ووجدانا في محبتكم ، فآه من طول شوقي ، آه من كمدي
يدي وضعت على قلبي ، مخافة ان ينشق صـــدري ، لما خانني جَلَدي
مازال يرفعها طـورا ، ويخفضها ، حتى وضعت يدي الاخرى تشد يدي

فلما تنفس صبح الفرج فانجاب الضيق والحرج ، بشر في آخر الخلوة وفي واقعة بقوله تعالى (قد نرى تقلب وجهـك في السـماء ، فلنولينك قبلـة ترضاها) فكانت اقامته النهائية في دمشق الشام بعد ان ادى فريضة الحج عليه رحمة الله ورضوانه •)

وفي دمشق كانت له سيرة هي القدوة لاكرم الناس ، وقد كان فيها آيـة من آيات الله اشرقت عليها من وجوده • وفيها نسي امارته وجاهه ومجده ، نسي كل شيء الا خالق الاشياء ، فكان منه المؤمن العابد والداعية الى الله •وفيها درس والف واقام مجالس العلم وحلقات الذكر وفيها الف كتابه المواقف •

يقول الكولونيل تشرشل[1] في كتابه « حياة عبد القادر » :

لما وصل الامير عبد القادر الجزائري الى بيروت في ٢٤ تشرين الثاني عام ١٨٥٦ استقبله اهلها بحفاوة بالغة ، والحوا عليه ليقضي ليلته بينهم فنزل عند رجائهم • واخذوا يسألونه في لجاج عن حروبه مع فرنسا ، فكان يروى لهم منها الشيء الكثير • وعند الصباح تابع سفره الى دمشق ، وواكبه الدروز حتى نهاية حدودهم • وقد دخل دمشق في موكب عظيم لم يعرفه انسان منذ عهد صلاح الدين • تتقدم الموكب كتيبة من الجيش والموسيقات العسكرية •

---

(١) الكولونيل تشارلز هنري تشرشل ، جاء الى لبنان سنة ١٨٤٢ على رأس هيئة اطلق عليها اسم (البعثة البريطانية في سورية) واشترى قرية بحوارة التي تقع بين عاليه وبحمدون وبنى فيها بيتا سكن فيه وماتزال اطلاله قائمة حتى اليوم • وهو ينتسب الى عائلة تشرشل الانكليزية الشهيرة وتوفي في بيروت •

لقد زحفت دمشق يوم علمت ان الامير عبد القادر قد جاءها ينشد فيها الاقامة، وزاره الناس من خاصة وعامة في داره التي لاتزال معروفة باسمه انها (دار السيد) . وقد ظن زائروه انهم سيجدون عنترة في هذا الذي درج على كل لسان وشفة قوله :

وانا بنو الحرب العوان ، لنا بها سرور اذا قامت ، وشانئنا عوى
شددت عليهم شدة هاشمية ، وقد وردوا ورد المنايا ، على الغوى

فاذا بالزائرين يجدون فيه ذلك العالم الذي من حقه ان يقول مفتخرا :

فان شئت علما تلقني خير عالم ، وفي الروع، اخباري غدت توهن القوى
لنا سفن ، بحر الحديث بها جرى ، وخاضت، فطاب الورد ممن بها ارتوى

فما حدث الامير من جاءه من الزائرين عن الجزائر ، ولا عن جهاده ، ولا عن خيانات وقعت ، ولا عن المرات التي نقض المستعمرون عهودهم ولا عن دسائسهم واضاليلهم ، ولا عن فظائعهم ومذابحهم ، ولا عن الذين ادخلوهم المغر واحرقوهم فيها ، ولا عن شيء مما يبرر امام السامعين انتصار الفرنسيين بل كان اعلم بكل ذلك سرا ولاة الامر ليكونوا على بصيرة من اهمال الاستعداد ، وعما للمستعمرين من مطامع يجب ان يحذر من دسائسهم ومكرهم ويتجنب هفوات تجعلهم يتخذونها سببا لتدخلهم .

اما لزائريه فكان اول ماعرف عنه من قول قاله، بعد شكره لحفاوتهم وقد كان ذلك في الاسبوع الثاني من توافد الزائرين عليه ، هو انه اذ كان الجمع حاشدا ودخل عليه شيخ معه ابنه وقد استأذن الابن بالانصراف وقال له الاب (الله معك) ، ان الامير علق على عظمة هذا الدعاء من الاب لابنه . بقوله :

ليس من ثروة يحتفظ بها الولد أعظم من دعاء ابويه اليه ، وانه لخير للولد ان يخلف له ابوه ثروة ادبية بتعليمه وتربيته وبتعويده العمل في خبايا الارض ، من ان يترك له ثروة مادية تعلمه الكسل والاسراف وعدم تقدير النعمة . قال الشاعر :

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي، ويغرى المرء بالكسل

فلولا التعليم والتربية ما ظهرت في هذا العالم مأثرة ، ولا جمعت ثروات تنفق على سبل الخير ومنافع الخلق ، ولا اصبح هنالك اناس يصيبون بالظن ويعرفون ما لم يكن بما كان على مثل ما قال الشاعر :

بصــير باعقاب الامــور كأنما يخاطبه من كل امر عواقبــه

والعلم هو الذي يسهل معه للانسان ان يميز بين الصدق من الكذب في الاقوال ، والحق والباطل في الاعتقادات ، والجميل والقبيح من الافعال • واذا قال الشاعر :

ولم ار أمثــال الرجــال تفاوتت الى المجد ، حتى عد الف بواحد

فان هذا الواحد الذي يعد بالف لابد ان يكون من العلماء •

قال تعالى (وقل رب زدني علما) ، فالله سبحانه وهو الذي ملك رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم كل فضيلة ، وزينة بكل خصلة جميلة ، ما امره بطلب الزيادة من شيء الا العلم لعظم شرفه • ثم استطرد فقال : والعلم حقيقة معنوية بسيطة ، لا توصف بالزيادة والنقص ، والقلة والكثرة ، الا من حيث المعلومات المنكشفة بها فحينئذ تتعدد بتعدد المعلومات كما ان كل معلوم حقيقة واحدة لاتتعدد ولا تتجزأ ولا تتبعض ، ولكن كل وحـدة لهـا كثرة بحسب وجوهها واعتباراتها ، قليلة او كثيرة فبهذا تلحق العلم القلة والكثرة والزيادة والنقص • مثلا الحقيقة يكون لهاماية وجه واعتبار،علم منها زيد عشرين وجها، وعلم عمرو خمسين ، وعلم بكر ثمانين ، فعلم زيد انقص من علم عمرو وعلم بكر اكثر منهما وعلم عمرو اكثر من علم زيد وانقص من علم بكر ، وكل من زعم انه علم شيئا وانتهى علمه فيه ، فذلك دليل على انه ماعلم ذلك ، ولا يعلم المعلوم الا بالعلم ، واما العالم فانما يدركه بواسطة التعلم[1] •

---

(١) راجع الموقف المائة والعشرة من المواقف

وخير القرى والمدن تلك التي يكثر فيها العاملون عن علم ، وهم في اجتماع كلمتهم على مثل ما قيل لرجل من بني عبس (ما اكثر صوابكم) فقال (نحن الف رجل وفينا رجل حازم ونحن نطيعه فكأنا الف حازم) على شرط ان يكون ذلك الحازم على معرفة بان الظلم يزيل النعم ، والمحاباة تجلب النقم ، وان اسرع الناس صرعة الظالم .

اما ترك الوالد لولده الاموال فهو مهما خلف له فما يكون شيء منه يوازي ما ملكه هارون الرشيد وهو الذي عندما دخل عليه سلمه الاحمر ورأى قصره وما فيه من نفائس وستائر وارائك قال يخاطب الخليفة :

اما بيوتك في الدنيـا فواسـعة فليت قبرك بعد الموت يتسـع

فجعل هارون يبـكي . ثم قال يا سلمه عظني . فقال (يا امـير المؤمنين لو كنت في فلاة من الارض فعطشت بكم كنت تشتري شربة من ماء تروى بها؟) قال بنصف ما املك . فقال (فان اعطيتها فلما صارت في جوفك ابت ان تخرج ، بكم كنت تشتري خروجها ؟) قال بالنصف الاخر . قال (ان دنيا تباع بشربة وبولة حري ان لايؤسف على فقد ما يعد فيها من الفضول)

ثم اتم الامير عبد القادر عليه رحمة الله حديثه فقال والجميع ينصتون الى ما يقول مبهورون بما يقول :

واما قول الاب لابنه (الله معك) فلست اجد دعوة افضل ولا اجمل يقولها انسان لآخر بله الاب لابنه . قال تعالى (وهو معكم اينما كنتم) . ومعيته تعالى مع مخلوقاته ليست كمعية المخلوقات بعضها مع بعض ، تعالى الله عن ذلك ، وانما هي معية رحمته سبحانه بكل شيء حيث يقول (ورحمتي وسعت كل شيء) ، ومعية حفظه بكل شيء حيث يقول (ان ربي على كل شيء حفيظ) ومعية شهادته على كل شيء حيث يقول (والله على كل شيء شهيد) ، ومعية احاطته بكل شيء حيث يقول (وكان الله بكل شيء محيطا) ، ومعية قدرته على كل شيء حيث يقول (وكان الله على كل شيء مقتدرا) . ثم ان الله عز وجل معية من وجـه آخر هي معية الامداد بمكارم الاوصاف وجميل الاخلاق قال عز وجل (ان الله

مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون) وقال جل ثناؤه (ان الله مع الصابرين[1]) . فعندما يقول الاب لابنه (الله معك) فكأنه يطلب له من الله الحفظ والسلامة والرحمة ، ويذكره بان يشهد الله معه وانه عليه رقيب ، ثم يشهده من ناحية حسن التوكل عليه بانه سبحانه على كل شيء قدير . وحسب كل انسان من الموعظة علمه بان الله يراه لاتخفى عليه خافية .

قال الشيخ محمد الخاني ـ كل هذا الذي ذكره سيدي الأمير عن الأب .

فقال الأمير : اما الأبن البار فيكفيه ما بشر به المبعوث بالرحمة قال : (ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح اليهما محتسباً ، الا فتح الله له بابين ـ يعني من الجنة ـ ، وان كان واحداً فواحد . وان غضب احدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه . قيل : وانْ ظلماه ؟ قال : وانْ ظلماه .) روى ذلك ابن عباس رضي الله عنه . وعن طلحة بن معاوية السلمي قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله اني أريد الجهاد في سبيل الله . قال : أمك حيه ؟ . قلت : نعم . قال النبي الزم رجلها فثم الجنة) . وعن عبد الله بن عمرو قال:أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله (اني جئت أريد الجهاد معك ، ولقد اتيت وانَّ والدي يبكيان . قال : فارجع اليهما فاضحكهما كما ابكيتهما) .

فلما انتهى الامير عليه رحمة الله من حديثه ، رجاه الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ محمد الخاني والشيخ الطنطاوي ان يدونوا ما يتكلم به في مجالسه فكان ذلك نواة الكتاب الذي عرف فيما بعد باسم (المواقف) .

(٧)

وفي اليوم الثاني زارت الامير وفود ووفود وتناقل العلماء اقوال الامير وحف به العلماء والوجهاء وافاضل الناس يلتمسون نفحات الخير والاستماع الى روائع المنطق والى تدفق بيان فيه النور والهدى ، وغدت مجالسه مهوى افئدة

---

(١) راجع الموقف المائة والسبعة والثلاثين من المواقف .

عشاق التصوف ورقائق الادب والباحثين عن الحكمة • وقد فتن الجميع بما كان عليه الامير من سمت الصلاح ووقار المنقطعين للعبادة ، الى جانب لطف ايناس وحسن مسامرة ، حتى غدا بيته مثابة عباد الرحمن الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولا يشغلهم شيء عن العلم وذكر الله • وهكذا لم يبق عالم الا وزاره بقي على هذا الحال شهرا • بيد ان بين الوفود كان هنالك ثلاثة علماء افاضل ما انقطعوا عنه يوما ، وهم الذين ذكرت انهم طلبوا تسجيل ما يتكلم به في مجالسه ••• وهكذا اشتدت عرى الصداقة بينهم حتى قال له الشيخ عبد الرزاق يوما :

ـ نحن اهل دمشق نعد ان نعم الله علينا عظيمة وكثيرة في هذه البلدة ، وقد زادنا جلت عظمته من فضله ان جعل اقامتك فيها ، وافادنا من علومك ومعارفك وما تشعله من وقدات نور في القلوب • غير انا لانريد الاقتصار بعلاقتنا معك على ذلك فنحن نريد ان تكون بيننا مصاهرة • فماقولك ياسيدي الامير بالزواج من اكرم البيوتات بجميلة وغنية وعلى غاية التقوى وهي لاتنقطع عن صيام الاثنين والخميس وهي كثيرة التهجد ؟ وقد اتفق ان ذهبنا الى الحج معها ، ورفاقة السفر فيها ما يفضح عن اخلاق الانسان ، فشاهدنا من حذقها في ادارة الاعاشة وفي ما هيأته انها السيدة المثالية الكاملة ؟

وهنا كان محل للتساؤل في دخيلة كل من سمع اقتراح الشيخ عبد الرزاق • ترى هل يلتقي الايمان بالجمال؟ او يلتقي الزهد باشهى ماتسقط عليه النفوس ؟ وكانت النساء في ذلك العهد متحجبات ما سرقت الشمس بهاءهن ، ولا أخذ منهن النهار صباحتهن ، نبرة صوتهن العفاف ، ولون عيونهن البراءة، ولهن من الخفر جمال يسمو على كل جمال • وما من شك أن الأمير ذهب في الوصف الذي وصف اليه انه سيقع على ذلك الكمال الذي تحدث به فيما بعد في الموقف (١٩٩) من كتابه المواقف قال (والكمال يكون في النساء كما يكون في الرجال ، فهن شقائق الرجال ، كما شهد لهن بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد جرت الحكمة الالهية ان يكونلهن براعة التدبير ، وبهن تشرف الامة الى حسن المصير)• وكانت فترة بعد ان اتم الشيخ كلامه صمت فيها الذين

شهدوا المجلس كل ينتظر ماذا سيكون الجواب • وكان الجميع يصغون الى ما عسى ان يقوله الامير • واذا به يقول وهو مشرق الوجه :

ـ زد الحسناء المحسنة براً وقل لها ان تشركني معك في دعائها ••• فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الجنة تحت اقدام الامهات) •

وقد ضحك الشيخ مع ابدائه الدهشة كيف ان الامير عرف انه يحدثه مازحا ، وان الحديث عن امه •

فلما قال الشيخ الخاني : ولكن ياسيدي الامير ان الشيخ يقول انها جميلة وغنية • اجابه الامير لقد صدق في كلامه وانا لا ارى اجمل من امي وان مراده جمال الاخلاق ، ثم انها اذ كانت تقية فهي غنية اذ لاغنى الا غنى القلب•والسيدة اذا ما كانت على ذلك الغنى وذلك الجمال لا شك انها تكون التي تملأ العيون والقلوب بفضائلها وكمالها •

قال الشيخ الخاني عندما سمع ما قاله الامير : الله اكبر • فو الله ما عدوت ما قاله الجنيد سلطان الطائفة عندما سئل عن (العارف) فقال (من نطق عن سرك وحدثك عما في نفسك) •

وعندما سمع الناس بهذه القصة ازدادوا من فطنة الامير اعجابا به وحبا له•

قال لي المرحوم عمي السيد يوسف الذي ذكر لي هذه الحادثة : انالشيخ الخاني ارتجل على الفور بيتين مدح فيهما الامير ، فزاد عليهما الشيخ عبد الرزاق البيطار بيتين بنفس القافية والوزن وان الشيخ الطنطاوي اضاف عليهما بيتين وقد ضمنهما بيتا معروفا هو قوله :

خلقت كما ارادتك المعالي   فانت لمن رجاك كما يريد

فما كان من الامير عليه رحمة الله الا ان اجابهم مرتجلا يثني عليهم وعلى اهل الشام بقصيدة بنفس القافية والوزن •

ولكن المؤسف هو اني اضعت الابيات والقصيدة رغم انالمرحوم عمي كتبها

لي بخطه المغربي عليه رحمة الله وقد كان حديثه هذا سنة ١٩٢٦ بمناسبة زيارة الامير خالد له عند قدومه من الجزائر وقد كان حدثه بتلك القصة •

واذكر انه اضاف ان قصيدة الامير التي يمدح فيها دمر سببها انه كان عنده اصحابه من الشيوخ وهم الذين ذكرت اسماءهم وانهم تباروا في مدحها وفي وصفها فكان كل منهم يذكر بيتا حتى تكونت من ابيانهم قصيدة • فما كان من الامير الا ان ارتجل بنفس القافية والوزن قصيدته التي مطلعها :

عج بي ـ فديتك ـ في اباطح دمر ذات الرياض ، الزاهرات النضر
ذات النسيم الطيب العطر الذي يغنيك عن زبد ومسك اذفر

وان الشيخ الصالح الورع الذي كانت حياته كلها عبادة وتقوى ولم يأكل الا من حلال وعمل يده وهو الشيخ محمد المبارك الحسني الجزائري وهو جد سميه عميد الكلية الشرعية قد شطر تلك القصيدة وزاد يمدح الامير بقوله :

عين الندا ، علم الهدى ، السامي ، له روحي الفدا ، من جهبذ شهم سرى
بدر العلا والمجد عبد القادر ال حسني ذي الوجه الجميل الأنضر
ابقاه ربي للوجود وصانه من سوء كل مروع ومكدر

وسمعت من المرحوم عمي ان سبب الصلة بين الشيخ محمد المبارك الشهير بتقواه وورعه وصلاحه وبين الامير عبد القادر ما كان يعلمه الشيخ المبارك من زهد حقيقي بالامير وقد ذكر لي من زهده انه كان يدخل الخلوة اربعين يوما في اشرفية صحنايا على قطرات من الماء وعلى لوزة وتمرة كل يوم • واحيانايكون قوته في خلوته كسرة من الخبز صغيرة مع قليل من الزيت بقدر ملعقه • وان من عادته ان كان يتقلل من الطعام ومن الدنيا ، يأخذ ما يأخذ للضرورة وبقدر الحاجة ، علما منه بان الحلال قليل والشبهة غالبة ، وكان يقول لسنا في مقام الحارث المحاسبي الذي كان اذا مد يده الى طعام فيه شبهة تحرك على اصبعه عرق فكان يمتنع عنه • كان يفعل الامير كل ذلك في حين كان يأكل عشرات الضيوف وعشرات الخدم من مطبخه وعلى مائدته وهو ما كان يتناول الا لونا واحدا من الطعام •

ثم قال لي المرحوم السيد يوسف ان الامير كما قال الجنيد عن المتصوفة انهم لم يأخذوا التصوف عن القيل والقال ولكن عن مجاهدتهم نفوسهم وكبحهم شهواتهم وتركهم الدنيا وقطعهم المألوفات والمستحسنات ، فليس الاعتبار عندهم للخرقة وانما الاعتبار للحرقة •

لقد كان الامير عظيما في علمه ، عظيما في حروبه ، عظيما في سلطانه على نفسه ، عظيما في زهده ، عظيما في روحه ، وانما يدرك عظمة تلك الروح من يعلم كما كان يعلم الامير ان الثروة والسلطة والجاه ما من شيء من ذلك يهب السعادة وان الزهد في ذلك كله هو الذي يخلق السعادة •

اما مانقل في ديوان شعره من قوله :

فلم يكن المولى ، لأكل عصيدة ... دعاكم، ولا للجبن والخبز والخل
ولكن دعاكم للحلاوة والشـوى ... وكل لذيذ طاب من انفس الاكل

فانما قالها في وليمة اقامها مدحت باشا ، في رمضان وارتجل قوله مذ شاهده الباشا انه والشيخ محمد المبارك ما كانا يتناولان الا ما كان امامهما من خبز وجبن فدعاهما للاكل من اطايب الطعام الموجودة • فقال الامير ما قاله شعرا ارتجله حتى يستر تقشفه وما كان عليه من حال ولكي لايفطن الا للشيخ محمد مبارك بانه هو الذي وجه اليه الباشا كلامه • وعذر الذي علق على ديوان الامير ماعلقه خطأ انه لم يكن على علم باسرار في حياة الامير ولا هو سمع سيرته من الذين عاصروه وعاشوا معه •

(٨)

ان صلة الامير عبد القادر بالتصوف كانت على ثلاثة مراحل كما يتبين ذلك لمن يتتبع سيرته •

المرحلة الاولى هي المرحلة التي سافر فيها الى بغداد مع المرحوم والده السيد محي الدين بعد اداء فريضة الحج سنة ١٢٤١ هـ حيث زار فيها آثار وضريح

القطب الرباني السيد عبد القادر الجيلاني قدس الله سره واخذ الاجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الاشراف •

والمرحلة الثانية هي التي انتهى بها الى الافق الروحاني بوقدة الاضطرار والشوق في السجن او على الاصح في خلوة (امبواز) التي اشار اليها في الموقف ال (٢١١ من كتابه) •

اما المرحلة الثالثة فهي التي تم له فيها الفتح العظيم وكان ذلك عندما سافر حاجا سنة ١٢٧٩ حيث اقام في مكة سنة ونصف مقبلا على العبادة والخلوة وحيث التقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية وتتلمذ عليه وهو ما يشير اليه الامير في قصيدته الرائية التي مطلعها :

امسعود جاء السعد والخير واليسر — وولت جيوش النحس،ليس لها ذكر

والتي يقول فيها :

امولاي طال الهجر ، وانقطع الصبر — امولاي هذا الليل ، هل بعده فجر ؟
اسائل كل الخلق : هل من مخبر ؟ — يحدثني عنكم فينعشني الخبر
الى ان دعتني ، همة الشيخ ، من مدى — بعيد : الا فادن ، فعندي لك الذخر
فشمرت عن ذيلي الاطار ، وطار بي — جناح اشتياق ، ليس يخشى له كسر
فانعم بمصر ربت الشيخ يافعا — واكرم بقطر طار منه له ذكر
فمكة ذي ، خير البلاد ، فديتها — فماطاولتهاالشمس -يوما- ولا النسر
بها كعبتان : كعبة طاف حولها — حجيج الملا • بل ذاك عندهم الظفر ،
وكعبة حجاج الجناب ، الذي سما — وجل ، فلا ركن ، لديه ، ولا حجر ،
وشتان ما بين الحجيجين ، عندنا — فهذا له ملك ، وهذا له اجر
وفيها حلا لي الذل ، من بعد عزة — فيا حبذا هذا ولو بدءه مر
وذلك من فضل الاله ، ومنة — علي ، فما للفضل عد ، ولا حصر
فقل لملوك الارض : انتم وشأنكم — فقسمتكم ضئزى ، وقسمتنا كثر

اما المرحلة الاولى فهي المرحلة التي تولى فيها ابوه مع صحبه نشر الطريقة القادرية في الجزائر على اسلوب البيعة التي سنها الشيخ عبد القادر الجيلاني عليه رحمة الله ورضوانه •

وهذه الطريقة لايمكن معرفتها الا بمعرفة سيرة الشيخ عبد القادر نفسه قدس الله سره •

(٩)

ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وعاش في عصر كانت حوادثه اليمه وكان المسلمون في تشتت وافتراق استولى عليهم حب الدنيا، فكانوا يتقاتلون على الملك والجاه والسلطان ، فشعر قدس الله سره ان ذلك لم يكن الا لبعدهم عن الدين وان علاج ذلك انما يكون بالتربية وباصلاح النفوس وبتفهيمهم ما يتهددهم من اخطار . فانصرف بكل همته واخلاصه الى الوعظ والارشاد واثارة الشعور الايماني وتهذيب الاخلاق ، والدعوة الى التوحيد والاخلاص لله تعالى .

وان من اقواله البليغة قوله « انظر الى من ينظر اليك واستجب الى من يدعوك اليه ، واعط يدك من يثبتك من سقطتك ، ويخرجك من ظلمات جهلك وينجيك من هلكتك ويخلصك من جيفتك ونتنك : نفسك الامارة بالسوء ، كما يخلصك من اقرانك الضالين المضلين : هواك واخلائك الجهال ، قطاع طريق الحق عز وجل ، الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمين وعزيز .الى متى العادة؟ الى متى الخلق ؟ الى متى الهوى ؟ الى متى الرعونة ؟ اين انت من خالق الاشياء ، المكون للاكوان ؟ الاول والاخر والظاهر والباطن ، المرجع والمصدر لكل ما تسعد به النفوس وما تكون معه طمأنينة الارواح ومحط الاثقال والعطاء بلا امتنان » .

قال ابن كثير : كان الشيخ عبد القادر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة ، يصدعهم بذلك على رؤوس الاشهاد وعلى المنابر وفي المحافل وينكر على من يولي الظلمة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم » .

ويقول صاحب قلائد الجواهر : « ولما ولى امير المؤمنين القاضي ابا الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر ، المشهور بابن المزحم الظالم قال الشيخ عبد القادر يخاطب امير المؤمنين على المنبر « وليت على المسلمين اظلم الظالمين ،

ما جوابك غدا عند رب العالمين ارحم الراحمين ؟ » فارتعد الخليفة وبكى ،وعزل القاضي المذكور لوقته » •

وكان ينكر على علماء الرواتب الذين التزموا صحبة ولاة الامر والوزراء ويأولون لهم احكام الشرع • فكان الشيخ يشنع عليهم يقول : « اين انتم وهم؟ (يعني علماء الاخرة) يا خونة في العلم والعمل يا اعداء الله ورسوله ، يا قاطعي عباد الله عز وجل ، انتم في ظلم ظاهر ، ونفاق ظاهر ، هذا النفاق الى متى ؟ يا علماء ، يازهاد ، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها ؟ انتم واكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في مال الله عز وجل وفي عباده اللهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم او تب عليهم واقمع الظلمة وطهر الارض منهم او اصلحهم امين • »

كان الشيخ عبد القادر قوي الشخصية قوي الايمان قوي التأثير فجدد دعوة الايمان وحارب النفاق وكان اسلوب التجديد الذي اتبعه هو انه فتح باب البيعة لتجديد العهد والميثاق مع الله على ان لايشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ، ولا يبتدعوا ولا يظلموا ولا يستحلوا ما حرم الله ، ولا يتركوا ما فرض الله ، ولا يتفانوا في الدنيا ، ولا يتناسوا الاخرة •

وقد تاب على يده ويد دعاته وتلامذته عشرات الالوف وصلحت احوالهم وحسن اسلامهم واصبح هؤلاء التلاميذ يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة وتجديد الايمان • وظل بينهم وبين الشيخ هذا الرباط وثيقا عميقا اقوى ما يكون رباط الرعية براعيها والجنود بقائدهم وانتشر تلامذته في الافاق يدعون الخلق الى الله ويربون النفوس في مرابط الجهاد ، ومجامع الاخوة ، وفي الثغور في انحاء العالم الاسلامي • واحتمل الخلفاء والامراء نقده الشديد وانكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم بسر كان فيه ولاخلاص وزهد وتجرد لا يتطرق الى شيء منه شك او شبهة •

قلت ان السيد محي الدين تولى مع صحبه وابنه عبد القادر نشر الطريقة القادرية بمعنى انه تولى التهيئة النفسية للكفاح ، فاوجد مراكز في القرى والاحياء وبين القبائل وبث دعاة فيها الى الله . فكان هؤلاء هم الذين غذوا حركة الجهاد التي قام بها الامير عليه رحمة الله من بعد .

وقد كان عمل مثل ذلك من قبل الشيخ ارسلان في دمشق ، وعمل مثلها على نطاق اوسع السيد احمد البدوي في مصر ، ثم عمل مثلها السنوسيون في ليبيا ، بمعنى ان الحركة الصوفية كانت في الطرق الثلاثة اكثر ما تعنيه قسم الفتوة من التصوف اي نشر الشجاعة الروحية والمادية ، والتحلي باكرم الاخلاق من شهامة وتجرد واخلاص حتى لايرهب المريد ولا يخاف الا الله ، ومن هنا كبرت قلوبهم وعظمت ارواحهم واستعصى على الباغين والاعداء اذلالهم .

قال الشبلي (كيف يصح لك التوحيد وكلما ملكت شيئا ملكك وكلما ابصرت شيئا اسرك . الاحرار هم الذين يقولون لا اله الا الله ويتذوقونها . والحرية حرية القلب لا حرية من استعبدته شهواته وملكته اهواؤه . فالانسان حر مما عنه آيس وعبد لما له طامع . قال الرسول صلى الله عليه وسلم (تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة) ، وان من يقول لا اله الا الله فهو الذي لا يعنو وجهه ولا يذل ولا يخضع الا لله) .

لقد لعبت الطرق الصوفية دورا مرموقا في الدفاع عن الوطن وفي نشر الاسلام وقد تركت فعالية هذه الطرق آثارا عميقة في افريقيا ، وقد بنت هذه الجمعيات اربطة وزوايا محصنة في البلاد التي وجدت فيها وفتحت المدارس القرآنية . بل ان التاريخ يسجل ان تلك الطرق اسست دولا وتجدد بها الاسلام . وهذه الطرق تتخذ الشكل نفسه دائما ، اذ يقول على رأسها الشيخ (ويدعونه في البلاد التي تتكلم الفارسية : بير) ، ويدعى اعضاء هذه الجمعيات اخوان بالعربية ، ويدعون بالفارسية دراويش . وقد بلغ عدد المتصوفة رقما كبيرا في بعض العصور ، اما اليوم فقد تناقصوا تناقصا ملحوظا . ومع ذلك فلا يزال يوجد في عصرنا

عشرات الطرق الاسلامية تضم الملايين من الاعضاء ، وتأثيرهم اعظم مما تجعلنا هذه الارقام ان نظن • واقدم الجمعيات الباقية هي القادرية التي اتينا على ذكرها •

وقد كان العصر التركي خصبا بتأسيس الطرق الصوفية وقد لعبت هذه الطرق لمدة طويلة دورا هاماً في الدولة العثمانية ، ولهذا السبب كانت الطريقة المولوية مثلا تحتفظ بامتياز تقليد السيف للسلطان الجديد •

قال ابن عطاء الله الاسكندري في الحكم (سبحان من لم يجعل الدليل على اوليائه الا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل اليهم الا من اراد ان يوصله اليه)• وهؤلاء الأولياء الاصفياء ، وفيهم من اسس الزوايا والطرق الصوفية ، كانوا يعملون لنشر الاسلام • ولا يخفى ما حصل من انحراف المتصوفه بسبب فكرة (وحدة الوجود) التي سنأتي على شرحها والرد عليها ، ثم الانحراف بسبب التقسيم بين الشريعة والحقيقة • وان من نافلة القول ان الفرق الصوفية ينبغي ان تعتبر أنها خادمة للاسلام مادام اتباعها محافظين على الشريعة وعلى متابعة الكتاب والسنة في الارشاد واعتبار نور الحقيقة مع نور الشريعة بمنزلة ضوء البصر مع نور السراج ، فان تباعد اتباعهم عن الشريعة ، كان منهم الزنادقة والاباحيون •

قال الامام مالك رضي الله عنه (اذا كنت من العلوم في غاية ومن الفهوم في نهاية ، فان ذلك يرجع لأصلين الكتاب والسنة ، ولا سبيل اليهما الا بمعرفة اللسان العربي) لفهم النصوص على الوجه الذي فهمه منها العرب حسب لغتهم في صدرهم الأول •

هذا وان الطرق الصوفية اذ وجد فيها من انحرف عن اصل الاسلام فقد وجد مجددون منهم شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه فانه الف منبها الى تلك الانحرافات عدة رسائل وكتب • وهو ماعاد وعمل مثله المجدد الكبير والداعية الى الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وحركته الاصلاحية ساهمت الى حد بعيد في ايقاظ الوعي الديني واليقظة السياسية في جزيرة العرب ، بل قد ساهمت دعوته بتجديد الاسلام في جميع انحاء العالم الاسلامي الذي عادت وهبت عليه ريح عظيمة من الاصلاح بعد دعوته •

(١١)

ان الشريعة بنصوصها وبحكم وظيفتها محافظة ، فهي تثبت العلاقات لتكون منسجمة وقائمة على العدل • غير انه نتيجة للتقدم الاجتماعي توجد بعض المشاكل وتظهر للوجود احداث تتبدل معها عادات يكون اقرها الناس فتصبح مع الزمان كأنما جزء من الشرع • وكذلك الامر في بعض العلوم التي يكون الفقهاء بنوا اجتهاداتهم على افتراض صحتها ، فاذا بتقدم العلوم يثبت خطأها • فمن هنا كانت الحاجة داعية الى مجددين ومصلحين ، وان من رحمة الله كما روى ذلك في الحديث النبوي انه يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الامة امور دينها•

والحديث من صيغ الاخبار بالمغيبات ، وهو من اعلام النبوة ولا شك ،ومع ذلك فهو متضمن الأمر والحث على التجديد والتشويق الى احراز هذه المنقبة العظيمة • فالحديث على وزن قوله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فالآية خبر بمعنى انه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين حقاً سلطه ، ولكنها تفيد ايضاً معنى ان كنتم تريدون ان لايكون للكافرين عليكم سلطه ، وتكون الغلبة والتأييد والنصر لكم من الله ، فكونوا مؤمنين حقاً ••• وجاهدوا اهواءكم ، واكبحوا جماح شهواتكم ، وكونوا صفاً واحداً وعلى كلمة واحدة ، وخذوا الأمور بقوابلها واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ولينظر كل ان لأخيه عليه مثل الذي له عليه ، ولتكن الغاية النهائية لكم عزماً ثابتاً على صرف الحياة في عمل الخير ، ونصرة الحق ، والرحمة نحو كل مخلوق ••• اي اعلاء كلمة الله ، واستطابة الشهادة في سبيل ذلك على ما يأمر بكل ذلك الاسلام •

هذا وان من الطبيعي ان تكون قيمة اصلاح المصلحين وتجديد المجددين تتوقف على درجة اتفاقها مع نصوص الدين ، بقدر ما تتوقف على اصلاح المجتمع وحل مشاكله والعمل التنظيمي لاعادة وحدته وازالة ما اندس فيه من انحراف•

وهنا حقيقة يجب ان لاتجهل هي ان كل دين وكل مذهب لابد ان ينحرف بعض الشيء مع الزمان وباختلاف الافكار ، ثم انه في كل مجتمع لابد من وجود اناس يستثمرون الدين ويأولون فيه نصوصا على ما يتفق مع اهوائهم واهواء اتباعهم ومن ينشدون رضاءه او الاكتساب منه •

واذا كان الدين حجازا من الضلال والشر والظلم والخبائث ، فان الانحراف عن جوهر الدين مايكون له من عامل سوى المصالح والخبث وروح الشر والاسترسال مع الاهواء •

وبينما الدين في جوهره يعد من اقوى العوامل لحياة الضمائر وللتسامي بالروح ، فان الانحراف والتمذهب الضيق اداة خطرة بيد المشعوذين والدجالين ومن يتخذون اللباس الديني وسيلة الارتزاق • وقد كان للمشعوذين والدجالين والكهنة سوابق في قتل الفكر واستباحة الاموال واضطهاد العلوم وطمس معالم الخير •

وشتان بين دين اذا ما انتشر لايعود معه للمجتمع حاجة لقوى مدججة بالسلاح ولرجال الامن ولمحاكم بسبب ما يهيمن به على الضمائر وتستنير به البصائر ، وبين دين يكون لنفر ، يكتسبون صفة التفوق والوهم بالنجاة على مقتضى عقيدته ، وان من لم يكن معهم فهو لا حرمة له ولا حقوق تتساوى مع حقوقهم ••• وان من صميم هذه العقيدة انتشرت في اوربا فكرة ان المستعمر وهو صاحب رسالة الرجل الابيض له كل الحقوق على كل فرد من سكان المستعمرة •

ان الاصلاح بصورة عامةلايكون الا حيثما يشعربالحاجة اليه فهو يولد مع متطلبات الحياة والمجتمع • ولكن الاصلاح الديني انما هو بالرجوع الى الجوهر فيه وللنصوص الاصلية بعد ان يكون قد تفسخ المجتمع وتفكك وانحط مما يمنى به من انحراف في التأويلات التي تفسد معها الضمائر وتستباح معها الاموال والحقوق والاعراض ••• ومن هنا كان كل أصلاح وليد الالم ••• والمفكرون هم الذين يستبقون الاحداث بدلا من ان يلحقوا بها •••والقاعدة هو ان يوحدة

العقيدة قوة الشعوب ... وهذه العقيدة انما تكون الوحدة فيها لا على مقتضى الاهواء بل على مقتضى ما كانت عليه اصل العقيدة . ومن هنا كانت الدعوة الى (السلفية) التي قام بها الزعيم الديني الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب عليه رحمة الله . اي الرجوع بالدين الى بساطته الأولى ونقائه الذي جاء به الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام .

(١٢)

اعان الاصلاح الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب من جانب آخر ظهور داعية سياسي وعالم كبير هو السيد جمال الدين الافغاني الذي كان يبشر بجميع الوسائل ضد التسلط الاجنبي والاستعمار ويعتبر الاب الروحي لمذهب توحيد الشعوب الاسلامية في العصر الحديث لتتكون منها القوة ، بوحدة عقيدتها ومصالحها ، لمقاومة الاستعمار الغربي ، وهو صاحب النداء الاول المدوي لوحدة المسلمين تجاه خطر الاستعمار الاوروبي وما اتفقت عليه الدول الغربية من تقسيم افريقيا واسيا الى مستعمرات بينها وما تقوم به من مجازر دامية لتحقيق اطماعها. اما دعوته للوحدة فقائمة على اساس ثلاثة عوامل : اولها العدل . وثانيها التزام المساواة ، على اعتبار ان بالعدل والمساواة الوفاق والوئام ولان بالاثرة والانانية النفرة والخصام . وثالثها وجوب تجنب شر الادواء وهو الاتفاق على عدم الاتفاق. وصورته ليست بالاتحاد على الاختلاف ذلك لان هذا ظاهر مفضوح ، بل بالاختلاف على الاتحاد . علما بان الاتحاد كالاستقلال لاينال بمجرد القيل والقال .

قال الاستاذ فرنو في كتابه « يقظة العالم الاسلامي » ومنذ ذلك النداء الذي اطلقه جمال الدين الافغاني فقد وضعت وحدة الشعوب الاسلامية في السلسلة الكبيرة التي تضم (وحدة الشعوب السلافية) و (وحدة الشعوب الجرمانية) و (وحدة الشعوب اللاتينية) و (وحدة الشعوب الانكلوسكسونية) .

انما الفرق بين هذه الوحدات والوحدة الاسلامية هو ان هذه ليست وحدة

عصبية قومية ولا عنصرية مستعلية ، بل هي لوحدة دين كل من دخله وارتضى بمبادئه سواء كان عربيا او غير عربي وسواء كان ابيض البشرة او اسودها او اصفرها او احمرها كان فردا فيها • وصفوة ذلك الدين ان يكون الانسان مستبصرا بهداية ربانية على اعتبار ان الخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله ، ووجهه يوليه سمت الحق بصرفه نفسه عن جملة الاهواء ويفطم النفس عن ارتضاع الشهوات ، فاذا اتفق وانتمى الى طريق صوفية كان ايمانه انه في كون يكمل وجوده بوجوده ، وبه تتم نغمته في لحن الاتساق البديع ، ومن ثم فهو صادق امين وفي مستقيم ذو نجدة وعفة وشهامة وكبر نفس وعلو همة ، وتنهض عقيدته ان الله خلق للناس عدة سبل للاستدلال عليه وللحصول على رضوانه ، وان الاختلاف سببه التنوع ، وان الله وحده سبحانه هو الحاكم الحق الذي يفصل فيما اختلف فيه الناس ومن هو الذي يكون اصفى سريرة وافضل عملا واكثر قربة منه جل جلاله مصداقا لقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما اتاكم • فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا ، فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون) •

وقد عنيت بان ميزة الوحدة الاسلامية ماذكرت ، لان تلك الوحدة تقدم للانسانية رسالة ليس من شأنها ان يقتصر بالمجتمع على المعنى العنصري او القومي او المادي ، لان تجمعا على ذلك الشكل وحده يؤجج اطماعا تخبو معها الروح وتتلظى بها اهواء تعمي البصائر ، وحتى لا يعتبر الانسان في جوهره انه مجموعة غرائز ، وان ترقياته العقلية تمتد بجهود مادية ، وغرضها المصالح ، وغايتها النهائية المكاسب المادية والاستعلاء ، وان الحياة التي يحياها الانسان والحيوان انما هي عارض خاص ليس الا ، ثم ان الطبيعة ستبدد ما جمعته اتفاقا وكان عن محض صدفة ، بعدم اكتراث ، وان الكفاح والبطش نواميس عمت الطبيعة وفرضتها علينا قوى معادية لنا ، والكون ليفني نفسه بنفسه ، والغاية الوحيدة التي وجدت من اجلها المخلوقات هي ان يكون بعضها لبعض طعاما وان خاتمتها متماثلة • فالحصيف على هذا من يهتبل كل فرصة لاشباع غرائزه وميوله ويستمتع بشجاعة في مغامراته الى حد الوقاحة ، اذا احتاج الامر اليها ، اذ النجاح هو

المثل الاعلى ، واكتناز المال هو اسمى الفضائل ، والانفاس المعطرة بالاغواء هي الفردوس ، وما لاينالة بالرضى ينبغي ان يسعى لنواله بالاحتيال دون اهتمام بحرام او حلال ، فالخير والهدى هما المصلحة وما لا يتفق مع الاماني هو الشر والضلال •

(١٣)

انا لا انكر ان القوميين في اوروبا ودعاة رسالة الرجل الابيض والقائلين بالعنصرية ، فيهم مفكرون وانسانيون ودعاة لاحترام الشخصية الانسانية والفكر الحر ، وان التربية في اوروبا من جملة اغراضها العمل لنشر روح الخدمة المدربة ولتحقيق الخير العام للنوع البشري كله ، وان الكثرة من رجال الدين لهم الضمير الذي يعبر تعبيرا فذا عن الديانة المسيحية في اسمى معانيها على اساس النشاط الايثاري • ولكن الواقع هو ان كل ذلك ليس على مستوى التقدم المادي الذي وصلت اليه اوروبا • وان شئتم شاهدا على ما اقول دعوني انقل اليكم ما ذكره الفيلسوف (بول سارتر) في مقدمته على كتاب (الكادحون في الارض) ل (فانون) فانه يقول عن عامة الاوروبيين : « ايديوليجيتنا » كاذبة وهي ليست غير تبرير لحذلقتنا ولما نغطي به اعتداءاتنا وسلبنا ••• ان اعمالنا ترجمة لافكارنا المطبوعة باضطهاد سحيق القدم ••• لقد جعلنا ابواق السيارات تنغم (الجزائر فرنسية) بينما يحرق الاوروبيون المسلمون احياء ••• وبعد عمليات التقتيل الجماعية في شوارع الجزائر من كان منا يقول (كفى !) ؟•• لقد كان من مهام الحكومة ان تبقي الكثير من اعمالها في الظلام • انكم تعلمون جيدا اننا مستغلون ، وتعلمون جيدا اننا اخذنا الذهب والمعادن ثم البترول من « القارات الجديدة » وحملناها الى البلدان الاستعمارية القديمة ، ولم يتم هذا بدون نتائج رائعة : قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية ، ان اوروبا المتخمة بالثروات قد منحت قانونيا صفة الانسان لكل سكانها ، كان كوكتو يتبرم من باريس « هذه المدينة التي تتحدث دائما عن نفسها » • واوروبا ماذا فعلت غير هذا ؟ وماذا فعل هذا العملاق الذي فاق اوروبا ، امريكا الشمالية ؟

يا للثرثرة : حرية ، مساواة ، اخوة ، حب ، شرف ، وطن ، ولا ادري ماذا ايضا ؟ كل هذا لم يمنعنا ان نتكلم في نفس الوقت لغة عنصرية ، ونقول زنجي قذر ، يهودي قذر ، عربي «جرذ» قذر . ان الاوروبي لم يستطع ان يصنع من نفسه انسانا الا بصنع العبيد والمشوهين . انا نتحدث عن النوع الانساني ونحن نقصد النخبة وعلى هذا فنحن لسنا الا اقلية فقط اي عصابة ملطخة بالدم ، واذا اردتم مثلا على ذلك فاذكروا هذه الكلمات الكبيرة : ما اكرم فرنسا . كرماء نحن ؟ وسطيف ؟ وثماني سنوات من الحرب الضروس التي كلفت حياة ما يزيد عن مليون جزائري ؟ والتعذيب بالكهرباء ؟ ولكن افهموا جيدا ان احدا لا يأخذ علينا ، اننا خنا ما لا ادري من رسالة ، وذلك لسبب بسيط وهو انه لم يكن لنا اية رسالة .) .

اما (فانون) فيقول في كتابه (الكادحون في الارض) (لانضع وقتنا في الترديدات العقيمة والتقليدات السخيفة المقرفة . لنترك اوروبا هذه التي لاتنتهي من الحديث عن الانسان وهي تقتله في كل مكان حيثما تلقاه في زوايا طرقها نفسها وفي كل زوايا العالم ... منذ قرون وهي تخنق الأغلبية الساحقة للانسانية في افريقيا وفي آسيا وفي جنوب اميركا بل وفي اوروبا نفسها من اجل المصالح وتحت ستار رسالة الرجل الابيض ... ان اوروبا قد اكتسبت سرعة جنونية لتحقيق كل مطمع ... وهذه السرعة ستسير بها الى الهاوية ومن الافضل الابتعاد عنها) .

(١٤)

أعود للحديث عن التصوف، وان من خير ما وجدته كتب في هذا الموضوع ما انقله عن كتاب (تحفة الابرار في علوم القلوب والاسرار[١]) قال :

(المتصوفه هم رجال الكمال ، الواقفون عند الحدود ، الراتعون في معارف الجود ، المتأدبون بآداب التنزيل ، العاملون ما يرضي الرب الجليل :

---

(١) الكتاب للعارف بالله ابراهيم المرابط الحسني وهو مخطوط لم يطبع .

بقوا بشهود الحق ، من بعد ما فنوا عن الكون ، فاستجلوا ضياء المواهب
يداوون امراض النفوس بحملها على ضد ما تهواه ذات المصائب

ولذلك كان من شروط المريد الفقر بعد الغنا ، والخفاء بعد الظهور ، ومراعاة الحق على كل حال ، وتطهير النفس من الاعراض والامراض والاحوال • قال الجنيد رحمه الله (التصوف هو ان يميتك الحق عنك ويحييك به) •

وللمتصوفة مقامات اعلاها مقام اليقين • وانواعه ثلاثة : علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين • فعلم اليقين ظاهر الشريعة ، وعين اليقين الاخلاص فيها ، وحق اليقين مشاهدة الفاعل الحقيقي على مثل ما يروى عن سيدنا الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) •

فمن اراد الخروج من غشاوة صفاته وخلاصه من سجن ظلمات ذاته ، ويكون من السعادة على مثل وضح النهار ، ويحيا على الصراط السوي والخطة المثلى ، فليصحب شيخاً عارفاً ، عالماً بعلاج النفوس الأمارة ودسائسها الخفية ، حتى يرشده للتطهر من الصفات التي تمنعه من الدخول الى الصلاة بقلبه ، لتصح صلاته ، من باب ما لايتم الواجب الا به فهو واجب •

وليس من شك ان علاج امراض الباطن : من حب الدنيا ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، والحقد ، وامثال ذلك ، واجب ؛ كما تشهد له الاحاديث الواردة في تحريم هذه الأمور • وعلى هذا يجب على من غلب عليه مرض من الامراض الباطنة ان يطلب له طبيباً يخرجه منه ، فان لم يجده في بلاده سافر اليه • واما من رزقه الله السلامة من تلك الامراض كالعلماء العاملين بعلمهم فانه لايحتاج الى شيخ اذا عمل بما علم على وجه الاخلاص ، لان ذلك هو حقيقة التصوف •

ومع ذلك فالشيخ المربي في هذا الزمان يسمع به ولا يرى ، وقد كان التصوف حالا فصار مقالا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان اتباعا للسلف فصار اتباعاً للعلف ، وكان تخلقاً فصار تملقاً •

ليس التصوف حيلة ،وبطالة ، وجهالة ، ورعاية بمزاح
بل عفة ، وفتوة ، ومروءة ، وزهادة ، وطهارة بصلاح
وتيقن ، وتصبر ، وتوكل ، وتذلل ، وتكرم بسماح
فالى الرشاد غدوه ورواحه ، والى الصلاح مساؤه بصباح

(١٥)

واما بعد ، فقد ولد الامير عبد القادر ١٢٢٣ هـ الموافق ل ١٨٠٨ م ونشأ في مهد العلم والتقوى وتفوق بالادب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية ، ثم انه كان من بيت فروسية من تقاليده المثاقفة بالسلاح وركوب الخيل وبذلك جمع الامير بين السيف والقلم •

وفي سنة ١٨٥٥ وصل الى دمشق وتوفي[1] فيها عام١٨٨٣ ودفن بمقام الشيخ الأكبر بترخيص من الباب العالي•

وجميع الذين اتصلوا به شهدوا انه لم يكن في حروبه وخلال حكمه الا المثل العالي بعدله وبمحافظته على العهود وباخلاقه الفاضلة ، وان التصوف الذي له فيه باع طويل ما كان يكتفي به نظرا حتى يمارسه عملا ، ولم يحن اليه شوقا حتى يعرفه ذوقا • وقد شهد من ترجموا سيرته انه كان ينال بالسياسة والرفق ما كان يعجز عنه غيره بالقوة والشدة ، وان مملكته وحكمه اسسهما على العدل وعلى نور المعرفة الواسعة ، وانهم لم يسجلوا عليه مرة واحدة انه خفر عهدا او ذمة وان كان الفرنسيون كلما خفروا عهدا او غدروا كانوا يتهمون الامير بانه هو الذي غدر وخفر • بل كانوا يسفكون الدماء في ضرورة وغير

(١) ـ خلف الامير عدة اولاد كلهم نجباء وعظماء ، وحصل لي شرف الاجتماع بمحي الدين باشا وعبد الله باشا من اولاده ، كما حصل لي شرف الاجتماع بحفيده المجاهد الشهيد الامير عز الدين وبالامير طاهر والامير خالد • واذ كانت الصلات قوية بين الاسرتين فقد كانا كثر اجتماعي بهم عند المرحوم عمي السيد يوسف عميد اسرة المرابط • وان ممن اعرفه اليوم مد الله بحياتهم : الامراء سعيد وبدر الدين وكاظم وجعفر وحسن وادريس وجميعهم لهم نفحات كريمة ومبرات واصحاب شهامة لهم في القطر السوري خدمات تسجل وأن منهم من كان يعمل في اكبر مناصب الدولة وله اثاره التي تذكر باخلاصه وتنطق بفضله • والاسرة باجمعها تلتف اليوم حول عميدها الامير سعيد الذي هو في سيرته تاريخ حافل بالعمل لخدمة المسلمين اكثر ما ألف من كتب عن استقلال سورية ذكر له فيها مواقف ومآثر هي محل تقدير واعجاب •

ضرورة لايقاع الرعب في قلوب الجزائريين ، حتى تم لهم بالبطش تارة وبالغدر تارة وبالدس مرة وبالخديعة اخرى من تشتيت القوى المتجمعة ضدهم بزعامة الامير •

لقد حشد الفرنسيون اعتى قواهم للاستيلاء على الجزائر ، ولكنهم بشهادة قادتهم ما انتصروا على الامير بالحرب ولا بما حاولوا خداعه به او بتضليله ، لانه كان على منتهى الحذر ومنتهى اليقظة ، وكانت له الكفاءة التي ليس فوقها كفاءة بفن الحرب في زمانه ، واما انتصارهم فقد كان بالدسائس التي دسوها عليه وبما زعزعوا من ثقة به واكاذيب عليه ، وبما تمكنوا من ان يخدعوا رؤساء القبائل ثم يخدعون به الحكومة المغربية• فقد كانوا يسرون المخادعة بالموادعةويسترون المصارمة في المسالمة •

اما الحكم الذي كان يجري عليه الامير في داخل بلاده فهو عدا انه اعد الشعب الاعداد المقتضي للدفاع ولمقابلة القوة بالقوة والأخذباسباب العلموبالوسائل المادية لكل تقدم فانه كان جعلقدوته ما ذكره ابن مسكويه من اسلوب فيالحكم قال : (يجب ان تكون نسبة الملك الى رعيته نسبة ابوية ، ونسبة رعيته اليهنسبة بنوية ، ونسبة الرعية بعضهم الى بعض نسبة اخوية ، فتكون عناية الملك برعيته كعناية الاب باولاده شفقة وتحننا وتعهدا وتعطفا وطلب الصالح لهم ودفع المكاره عنهم وحفظ النظام فيهم) •

وان اكبر ما يلقي النور على شخصية الامير ثلاثة امور :

اولاها ـ انه عندما اقام في دمشق فقد كان يلجأ اليه الناس في مشاكلهم وخصوماتهم فكان يصلح بينهم ويرتضون احكامه ، فكان يرضي من ماله اذا ما تبين له عجز الذي يحكم عليه عن الاداء • وكان يهب الشبان مهورا للزواج، وكانوا يتوسطونه للعفو عن المحكومين فما كان يرد الرجاء اذا جاءه من يكفل المحكوم ويضمن توبته ، وكانت كلمته لاترد لدى الحكومة ، بل كان ولاة الامر يتقربون اليه بتنفيذ ما كان يشير به • وكان يلجأ اليه من يتحسس انه مظلوم • وقد اعتاد الفقراء ان يلجأوا اليه لنفقات تجهيز موتاهم • وكان عين مخصصات للفقراء تعطى اليهم ايام الجمعة • وكان يوزع الخبز على مئات الاسر المعدمة

يطمع بمواصلة تسلطه او اعتدائه اذا ما لجأ المظلوم او المعتدى عليه للامير طول مدة رمضان • ولم يكن من الهين على وجيه قوي او متسلط ذي مكانة ان يطمع بمواصلة تسلطه او اعتدائه اذا ما لجأ المظلوم او المعتدى عليه للامير •
ويحكى عن هذا الموضوع حكايات يطول شرحها •

ثانيها : حسن معاملته للاسرى فقد كان الامير ينزل اسراه على ما رواه المؤرخون منزلة الضيوف ويأمر لهم بافخر الطعام واحسن الملبوس • وقد افرد شرشل الانكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه بذكر ما كان يعامل به الامير الاسرى الواقعين في يده المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة وايد ذلك بحكايات قال : (ان الاعتناء الموجود عند الامير عبد القادر لاسراه الزائد عن الحد لم يكن له مثال في اخبار الحرب • وكان الاسرى الذين يقعون في ايدي المتوحشين كانوا معرضين للتهديدات البربرية • ولعدم فهم لفظة « أسير » عند القبائل المتوحشة كانوا لايبقون على كل من قبض عليه في ساحة الحرب • وكان جل مراميهم تكثير عدد الرؤوس من الاعداء افتخارا بحملها على جوانب الخيول وطمعا بما ينالهم على كل رأس من الجائزة حتى صار ذلك الفعل طبيعة لهم لايمكنهم تركها•فكيف وقد اضطرمت نيران غيظهم، مما الم بهم من الفرانساويين؟ بيد ان مرحمة الامير وشفقته وبديع الحكمة والسياسة التي ابداها بجعله لكل من اتى باسير سالما ضعفي ما كان يأخذ على الرأس ،وكل من اتى برأس اسير يجازى بالجلد على رؤوس الاشهاد ، واصداره الاوامر اللازمة بهذا الشأن في سائر مملكته ان كل ذلك مما يسجل له • وهذه المعاملة الحسنة واضرابها سرت في سائر خلفائه ، وعماله ، واثرت في العرب والبربر تأثيرا غريبا ، فغلبت مرحمتهم الانسانية على شدتهم البربرية • غير انه لم يفق احد لما كان لوالدته ، من كمال الحلم والمرحمة ولطف المعاملة والشفقة ، على اسرى النساء •• فقد اعتنت بهن اعتناء انساهن ما هن فيه وجعلت خيمتهن ، ملاصقة لخيمتها • وعينت اثنتين من امائها خفرا عليهن • وفي كل صباح ترسل اليهن : القهوة والشاي ، والسكر ، والزبدة ، واللحم ، وكافة ماتدعوهن اليه حاجتهن • وان من شدة حرص الامير على الاعتناء بشأن اسراه ، كتب الى اسقف الجزائر ، ان يرسل اليهم كاهنا ليسليهم ، ويخفف مصائب الاسر عليهم ، ويكتب لهم مايريدون ان يكتبوه

لعيالهم ، ويكون ذلك الكاهن امينا على نفسه ، وضيفا مكرما عنده • ثم قال : وان كان قلب الامير قاسيا عند لقاء الخطر لكنه يلين ويذوب شفقة ، عندمشاهدةحزن الاسرى •

وكان اشد كراهية عنده ان يرى الاسرى من النساء ويضطرب عند تصوره وقوعهن فرائس الحرب • وقد جاء اليه احد اعوانه باربعة من النساء اسرى فحول وجهه وقال له متهكما : الاسد يقنص الحيوانات القوية • واعادهن مكرمات • واطلق مرة اربعة وتسعين اسيرا بلا فدية ولا عوض وارسل معهم خفرا يوصلهم الى رفقائهم • فقال احد قوادهم ينبغي لنا اخفاء هذا الامر ،وكتمه عن العسكر بل يجب ان يزعم ان الامير لايوفر اسيرا وكل من يقبض عليه اسيرا يقتله حتى يستميت الجنود بقتالهم لايطمعون بالاستسلام للنجاة من اهوال الحرب • ولذلك كان الامير يطالب بمبادلة الاسرى فلا يجيبه الفرنسيون الى طلبه حتى لاتنتشر الدعاوة من الاسرى امام الفرنسيين ان الامير كان يحسن معاملتهم • وقد كتب اسقف الجزائر يسأله اطلاق اسير من اقربائه وقال في كتابه : « ليس لي مال افديه به • بل اقابلك بالدعاء والثناء ، والراحمون يرحمهم الله » •

فاجابه الامير الى مطلوبه واطلق له اسيره وكتب اليه : « حيث انك زعمت انك مشفق على اسيرك فكان ينبغي لك ان تعم باشفاقك سائر الاسرى ، فتطلب اطلاقهم •

قال فاليوت في تاريخه : ان الامير كان في صورة عدو كريم الاخلاق • فان كل من كان اسيرا في قبضة يده من الفرنسيين ، قد اثنى عليه الثناء الجميل• وكان يأمر باعفائهم من الخدمة يوم الاحد ملاحظا في ذلك اعتبار الديانة المسيحية ، مع ان الفرنسيس لم يلاحظوا اعتبار يوم الاحد • بل هو عندهم كسائر الايام •

ثم ان الامير ، بدا له يفادي بالاسرى الباقين • ولما لم يحصل على طائل اطلقهم وكتب الى ملك فرنسا ما نصه :

• الحمد لله وحده • من ناصر الدين ، عبد القادر بن محي الدين ، الى

جلالة ملك فرنسا ، لويس فيليب ، احسن الله مقاصده في كل ما يؤول الى سعادته • وجعله من الذين يتبعون سواء السبيل •

والمعروض لجلالتكم : انني كنت مستعدا لقبول شروط الصلح وطالما تعاطيت اسباب تقريره وسعيت وراءها فلم يجد ذلك نفعا لشدة ما انطوت عليه بواطن عمال الجزائر من الفساد والعناد • وفي اثناء الوقائع بيننا وبين عساكركم كان يقع في ايدينا اسرى كثيرة منكم فنفادي بها اسرانا الذين في ايديكم وفي السنة الماضية كتبت لنوابكم بمبادلة الاسرى فلم يردوا لي جوابا • فراجعتهم مرارا فما افادت المراجعة شيئا • بل سجنوا رسلي • والآن قد اطلقنا عشرة ضباط مع الرئيس « كورلي دي كوفرى » وهم يعلمون بما اجريناه من الوسائل والتدبيرات الحسنة لاجل الوصول الى الفدية بما عندكم من اسرى المسلمين ويعلمون حسن معاملتنا لسائر الاسرى الذين يقعون في ايدينا • ويعرفون ان عدم رد نوابكم عن مكاتيبنا في هذا الامر هو الذي عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم) •

ثالثها ـ ان الامير لما قرر الاستسلام فقد ارسل الى الجنرال لامورسيير رئيس الجيوش الفرنسية رسولا من حاشيته ليخبره باللسان عن امر استسلامه فاهتز الجنرال لذلك سرورا وبادر بارسال سيفهالى الامير مع ورقة ختمها بختمه على بياض ليشترط الامير بما اراد • ثم انهم اتفقوا على ان يحملوه مع جميع عائلته الى عكا او الاسكندرية وان لايتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر وان يبقى من يختار الاقامة في وطنه آمنا على نفسه وماله • غير ان الافرنسيين اخذوا الامير بعد ذلك ووضعوه محجورا عليه في (امبواز) • يقول تشرشل في تاريخه ما معناه ان الامير عبد القادر ما زال ذا همة عالية لم تؤثر فيه شدة المشاق التي احاطت به ، من كل ناحية ولو المت بغيره لاذلته اذلالا واعدمته الصبر والتجلد تفصيلا واجمالا • ثم قال : وكان الناس يتقاطرون اليه من جميع انحاء فرنسا وغيرها لمشاهدة حاله في اسره • فكانوا يعجبون من سمو همته وبعده عن اظهار الضجر وتسليمه لتصاريف القضاء والقدر • ولاشك ان من كان مثله في القوة الفاضلة لايبالي بالشدائد النازلة • وقد قيل له في ذلك ، فقال :

وكان كثيرون من اصحاب المناصب وذوي السياسة وقواد الحرب يسابق بعضهم بعضا لزيارته والذي كان يدهشهم على الاكثر تظاهره بالبشر والافراح ، مع ما احاط به من المحن والاتراح • وقد اتفق ان دخل عليه ذات يوم الكرونيل « لورو » وهو يضحك وقال له ان احد القسيسين السذج في « ماكون » طلب مني ان يقابلك لكي يعرض عليك الديانة المسيحية وقد تعهد لي بفرح شديد على اقناعك •

فقال الأمير : يقتضي ان يكون هذا الرجل من اصحاب الخير • فليس هو سـاذج بالمعنى الذي تريـد ، ولكنه الرجل الانسـاني الذي لا يطمع الا بالهدى وعمل الاحسان •

(١٦)

قلت ان اكبر ما يلقي النور على شخصية الأمير ثلاثة أمور • وقد ذكرت اولها ان الناس كانوا يلجأون اليه في مشاكلهم وخصوماتهم فكان يصلح بينهم ويرتضون احكامه ، فما كان يخفى عنه الحق ولا تجوز عليه الأباطيل • وثانيها حسن معاملته للأسرى ، فما كان يرى في الاسير الا انه انسان امسى في اشـد حالات الضعف فهو أحق من كل انسان بالرحمة • وثالثها رباطة جأشه عندما غدر به الفرنسيون ونقضوا ما عاهدوه عليه وسجنوه ، فقد كان كل من اتصل به يعترف بعظيم ما كان عليه من الايمان والثقة بالله والاعتداد بالنفس بل انه كان على اتم ما يكون الانسان من الصفاء كأنه كان يشاهد تمثيلية مأساة هو في حرز من تقلبات احداثها •

وكل ذلك عظيم •

ولكن الذي سـجله التاريـخ كأعظم مزيـه كان يتحـلى بهـا الأمير هو انه كان كتلة من الهمة العاليـة والاخلاص ، وان في قلبـه كانت اسمى مبادىء الاسلام ، فكان اذا رأى منكرا كان يغيره بيده ، فقد اتفق ان حدث

مأساة مشؤومة قام الرعاع فيها بصورة الوحش الهائج ، فتصدى لهم بالكلام ناصحا ومحذرا ومنذرا ، وكانت له النظرات الحازمة ، فارتعدوا من سطوته • ثم كان له موقف بعد ذلك مع الذين لم يصل الى سمعهم كلامه ؛ وهذا الموقف هو الذي يجب على كل دمشقي ان يعرفه ويؤمن بانه مدين بالكثير لشجاعة الأمير ولايمانه ولشهامته وانه كان العامل في النهاية لازالة احقاد • لقد اوضح بان للوطن حرمه ، وللمواطنين قداستهم المنبثقة من تلك الحرمه ، وان تلك الحرمه لاتكون بالخناجر والسيوف ومعاول الهدم والصياح ، بل بالوحده التي لاينهض بهاشيء كروح الشامة ، وحماية كل جار جاره يكف عنه الشر ، وبان ينزل الجميع على مبادىء العدل والتسامح والمحبة ، وهو ما يأمر به كل دين الهي مقدس • فكان مما قاله يومئذ (ان الاديان ، وفي مقدمتها الدين الاسلامي ، أجل وأقدس من ان يكون خنجر جهاله او معول طيش او صرخات نذالة تدوى بها أفواه الحثاله من القوم ••• احذركم من ان تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا ، او يكون له على نفوسكم سبيلا) • ثم كان له موقف وأي موقف ! هو الذي نشرحه بشيء من التفصيل نجعل ذلك خاتمة لسيرته كأعظم ما يسجل له من اعماله في دمشق • لاسيما اذا علمنا ان الله لم به الصدع وألف بين القلوب ، اعانه على ذلك كرام الناس من جميع الطوائف • وان في دمشق منهم من لم يدخل في باطل ولم يخرج من الحق ، تأثروا أشد التأثر مما وقع ، بل أحزنهم ما كان من ازهاق ارواح برياء وما كان من تسلط شرار الناس •

وتفصيل الحادث انه لما وقعت فتنة دمشق المعروفة في ١٨٦٠ هب الأمير مع رجاله المغاربة الى الاحياء المسيحية لرد المهاجمين عنها ، ونصحهم بالكف عن اعتداءاتهم وبث رجاله ، وعلى رأسهم رجله الامين قره محمد ، في الامكنة التي لجأ اليها المسيحيون وقد التجأ الى بيت الامير اعيانهم والرهبان والراهبات والقناصل • ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم الى قلعة المدينة ليحتموا بها • كما احتمى بحي السويقة وبخان المغاربه مسيحيو الميدان ، وكان من جراء ذلك مقتل عدد من الجزائريين هناك ، وكان من بينهم فضلاء هم رفقاء الأمير في جهاده هاجروا معه من الجزائر •

وفي اليوم الثالث تجمع الغوغاء عند باب الحديد بغية اقتحام بيت الامير ، فخرج اليهم ، ولما التقى بهم ذعروا واسقط في يدهم وانصرفوا قاصدين بيوت اعيان المسلمين ، الذين شاركوا الامير في حماية المسيحيين ، للفتك بمن احتمى بها • فارسل هؤلاء الاعيان يطلبون منه النجدة فبعث الى كل منهم بجماعة من رجاله ، ثم ان من المسيحيين من طلب من الامير ان يؤمن له طريق الوصول الى بيروت ، فأجابهم الى رغبتهم وارسلهم اليها بحراسة رجاله ، فوجا بعد فوج • وقد بلغ عدد الذين حماهم خمسة عشر الف نفس • ويصف الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه « حلية البشر » فتنة دمشق وما شاهده فيها من المآسي وصفا مسهبا ، ويذكر انه خطب بالناس في جامع كريم الدين ، لينهي عن ايذاء المسيحيين وانه طاف مع جملة من جماعته في الاحياء لانقاذ البائسين والمفجوعين •

وكان من نتيجة تلك الفتنة ان السلطات حكمت بالاعدام شنقا على سبعة وخمسين شخصا من المدنيين ، منهم خمسة من الوجهاء وعلى مئة وعشرة من الجنود المحاربين التابعين للجيش الذين ساهموا بالفتنة ، ونفى ١٤٥ شخصا من اعيان دمشق ، ومنهم مفتي المدينة، الى جزيرة قبرص، وحجزت املاكهم،وحكم بالسجن المؤبد على ٧٢٣ من المدنيين وكان من الذين حكم عليهم بالاعدام ونفذ فيه ، والي دمشق احمد باشا •

يقول « تشرشل » في كتابه « حياة عبد القادر » :

ان جميع ممثلي الدول المسيحيين في دمشق ، دون استثناء مدينون بحياتهم للامير عبد القادر عندما وقعت الفتنة • ياله من قدر عجيب وفريد في نوعه ،عربي من سلالة النبي محمد ، يحمي ويصون عروش المسيح ، ويخمد هياج اوروبا المسيحية وغضبها • لقد بزغ نجمه كقائد وواعظ لايجارى • قاد الجهاد ضد قوة مسيحية غاصبة واوقع جيوشها في حيرة طوال خمسة عشر عاما ، وهو لا يملك الا قوة ضئيلة اذا ما قيست بقوة العدو • وكان سلاحه في جهاده الاخلاص في العقيدة والجرأة ، وهما مصدر حماسة اتباعه في حروبهم الى جانبه • وقد اضطر عدوه ان يعرض عليه صلحا ذا شروط مغرية ، وان يمنحه

القاب السيادة • شرع يبني وينظم ادارة داخلية ازالت الفوضى المنتشرة ،وشقت طريقا معبدا الى العدالة ، فوضع بذلك اسسا متينة لامبراطوريةمحمدية اسلامية•
وقد كان مثالا وقدوة لاتباعه في الشجاعة والقوة والدأب والصلاح والتقوى •
ولكنه في النهاية سقط امام الكثرة التي تألبت عليه ، فاضطر ان يستسلم لاعدائه المسيحيين مشترطاً ان يفسح له مجال العيش في حرية كاملة على ارض مسلمة•
غير ان اعداءه غدروا به ، وساقوه الى بلادهم ، لتزج به حكوماتهم في السجن مدى الحياة ، دون ان تدع له املا بالنجاة • ولم تخنه ثقته بنفسه في احلك الظروف فقادته عظمته نحو الحرية مرة ثانية • وبدورة عجيبة من عجلة القدر، تسنم هذا الرائد الاسلامي ، اسمى مقام في العالم المسيحي ، فاصبح عضوا في عدد كبير من جمعياته العلمية والادبية ، يراسل المع الكفاءات على قدم المساواة•
وفي النهاية ، رأى صدره مغطى بالاوسمة والشارات التي منحه اياها الرؤساء الذين شهر السيف ضدهم •

ذلك امر ليس له شبيه في التاريخ •

وقد انهالت على الامير كتب التهنئة والثناء من معظم انحاء العالم واشادت الصحف بموقفه الانساني النبيل •

ولما بلغ السلطان عبد المجيد العثماني انباء مآثره في دمشق ، منحه ارفع الاوسمة • وتلقى من الصدر الاعظم ومن قيصر روسيا وملك ايطاليا ووزير الخارجية الفرنسية ومن المجاهد البطل الامام شامل الداغستاني كتب تهنئة وتقدير كما ارسلت اليه ملكة بريطانيا بندقية هدية منها فكتب اليها كتابا باللغة العربية بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٧٨ هـ يشكرها فيه على هديتها ويقول : « انني لم افعل الا ما توجبه علي فرائض الايمان ولوازم الانسانية ، ولكن اعتزازي الاكبر هو انني استحقيت تقدير جلالة الملكة وتهنئتها » •

وكانت بعض الدول الاوروبية عند وقوع الفتنة قد ارسلت قطعا من اساطيلها الحربية الى بيروت ، وحملة عسكرية مؤلفة من اثنى عشر الف جندي ، بقيادة الجنرال الفرنسي « دي بوفور » ولم تجد هذه الحملة ما يدعو الى تدخلها ، لان

فؤاد باشا وزير خارجية الدولة العثمانية الذي اوفدته الحكومة الى دمشق كان قد انهى كل شيء ، واعاد الامور الى نصابها ، ولكن دي بوفور لم يشأ الاكتفاء بما جرى ، فافتعل الخلاف بينه وبين فؤاد باشا ، واوسل الى الامير عبد القادر يخبره بانه قرر المجيء الى دمشق وضربها بالقنابل ويطلب منه الخروج منها مع ذويه حتى لايصيبه اذى . فدعاه الامير الى الاجتماع به في البقاع ، في قرية « قب الياس » للمداولة ، وان يكون ذلك في الليل وبسرية تامة . وترك الامير دمشق ، على انه قاصد الى مزرعته « الاشرفية » في الضاحية . وجاء الجنرال الى قب الياس ، فطلب منه الامير العدول عن فكرته ، واصر الجنرال على تنفيذها وشدد الامير في نهيه ، واوضح له مغبة عمله وتأثيره السيء ، ولجأ الى تحميله شخصيا مسؤولية ما ينتج عن تصرفه من ضرر ، وما زال به حتى تمكن من اقناعه بالعدول عن عزمه ، وقد اوضح له مافعله فؤاد باشا وما اتخذته الحكومة من تدابير وانها ارسلت لكل ثمن في دمشق مأمورا لتحصيل المسلوبات وصار الناس يلقون ما عندهم في الطريق ليلا للتستر والكتم ، والعساكر تقبض على من يتهم سواء كان من الاصناف او من الاشراف ، حتى اجتمع في التكية نحو ثلاثة آلاف، ثم امر فؤاد باشا بتفريغ بعض البيوت لسكنى المصابين، ففرغوا من بيوت القيمرية والقنوات وباب توما والسماكة والشاغور ، وبعض بيوت باب المصلى بمقدار ما يكفيهم اجمعين . وحينما انتقل النصارى الى البيوت التي فرغها لهم فؤاد باشا عين لكل فرد منهم خرجا يكفيه من كبير وصغير . ثم عين في كل ثمن من اثمان دمشق مجلسا مؤلفا من اعضاء ورئيس ، لكي يطلبوا انفارا ودواب لتعزيل حارة النصارى من التراب ، لتيسير عماراتها واعادتها ، ونظير ذلك في القرى المجاورة لدمشق من مسافة عشرة اميال الى سور البلد من النواحي الاربع ، وارسلوا كذلك مأمورا بان يقطع الاخشاب اللائقة للعمارة ، ويحضرها الى محلة النصارى وانه فرض الاموال على الاهلين لاعادة البيوت المهدومة » .

ثم ان الأمير عليه رحمة الله ابان للجنرال (دي بوفور) ليزيده اقناعاً بان ما فعله هو نفسه وما فعله فؤاد باشا لم يكن ذلك الا عملا بالشريعة الاسلامية ، وان العدوان الذي ارتكب لم يكن الا من رعاع جهلة ، وان الوجوه والعلماء

استنكروا ما جرى ، بل انهم ساهموا معه الى حد كبير في حماية المسيحيين ، وان من تخلف عن القيام بواجبه قد اعتبر مسؤولا وزج به في السجن ، وان الاسلام من مبادئه احترام حقوق الافراد وكفالة حريتهم ، بل ان من اقوال النبي: (الا من ظلم معاهداً او ذمياً او احداً من اهل الكتاب ، أو كلفه فوق طاقته ، او انتقصه شيئاً من حقه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه، فانا خصمه يوم‌القيامة)•

ثم ان الامبراطور نابليون الثالث دعا الامير الى ضيافته في باريس بعدالفتنة فلبى الدعوة • ولما وصل الامير الى مرسيليا وهو في طريقه الى باريس ، وعرف الناس موعد سفره تجمهروا الوفا في الساحة امام الفندق ينتظرون خروجه • ولما حان وقت الرحيل ، اطل من الشرفة ، وطلب من مرافقه ان يعلن للجماهير عدوله عن السفر لدواع خاصة ، شاكرا عواطفها واهتمامها فحيته الجماهير وتفرقت ، وبعد انقضاء ساعتين ، جاء نبأ الى مرسيليا بان القطار الذي كان ينوي الامير السفر فيه ، وقع له حادث اصطدام ، وان القتلى والجرحى كثيرون ، ولم يمض نصف ساعة على انتشار الخبر ، حتى تجمهر الناس ثانية امام الفندق واخذوا يهتفون يعيش القديس عبد القادر • وغداة ذلك اليوم سافر الامير الى باريس فاستقبله اهلها بحفاوة بالغة ، وانتشروا على جوانب الطرق التي مر بها يحيونه في حماس شديد •

على ان الامير كان زار من قبل السلطان عبد العزيز ، وعرض عليه شفاعته في اعيان دمشق الذين حكم عليهم الديوان العرفي بالنفي اثر فتنة دمشق ، ونفوا الى قبرص ورودس • فلبى السلطان رجاءه ، واصدر « ارادة سنية » باطلاق هؤلاء الاعيان واعادتهم الى بلادهم •

(١٧)

انتقل الامير الى جوار ربه ليلة السبت ٢٤ ايار ١٨٨٣ في مصيفه في‌ضاحية دمر ، قرب مدينة دمشق ، وفي اليوم التالي نقل الى بيته في دمشق ، وصلى عليه في جامع بني امية ، ودفن في الصالحية في مدفن الشيخ محي الدين العربي •

سارت جنازته على طريق الصالحية حتى بلغت دار الحكومة حيث استقبل النعش هناك قناصل الدول جميعا بالالبسة الرسمية مع جميع امراء العسكرية والملكية وكان عدد الذين ساروا خلف النعش ثلاثون الفا عدا الواقفين بالطرق وعلى الابواب والنوافذ عجزا عن اختراق الصفوف ، وقد انهالت على ابنه محمد باشا التعازي من الباب العالي ومن رئيس جمهورية فرنسا ومن الملوك والامراء وفاضت من حول وفاته المراثي وكان فيها ما نظمه وكتبه الأديب الشاعر اديب اسحق تحت عنوان « داهية دهماء » من ذلك قوله :

ما خلت ان عماد الدهر ينهدم — حتى قضى السيد العالي الذرى العلم
القاصد المجد مازلت به قدم — الصاعد العزم ما انحطت له همم
الباذل الخير ما غاضت مكارمه — الحافظ العهد ما ضاعت له ذمم
الموقد النار يوم الروع يضرمها — حينا ويطفئها والنار تضطرم
فالخيل والليل والبيداء تندبه — والسيف والرمح والقرطاس والقلم
والحزم والعزم والمجد الذي بسقت — فروعه والعلى والفضل والكرم

للامير عبد القادر مكانته في التصوف والشعر والأدب وفي خدماته الاجتماعية وآرائه السياسية واساليبه في الحكم . ولكن الواجب القومي والأدبي يفرض علينا ان نعرف الى جانب كل ذلك شيئا عن البلاد التي انجبته لاسيما انه في ذاته ثمرة من ثمرات تلك البلاد . ولان كل ما كان له من معرفة وعلوم كان مما تعلمه في الجزائر . مما يدل على ما كان لتلك البلاد من مكانة علمية وما فيها من وسط ثقافي ممتاز ، يقف المؤرخ امام رجالات فيها وعلماء وفقهاء وشعراء ، باحترام واعجاب شديدين . لذلك سنجعل للجزائر نصيبا من الحديث عنها في المحاضرة التالية ، للتدليل على انه مادامت تلك البلاد من شمال افريقيا تنجب اشخاصا من ذلك النوع ، فان تلك البلاد ستبقى عربية ، وستبقى مسلمة ، وستظل المعقل القوي للتحرير ، وانها البلاد التي تعتبر العرين لاعز مفاخر الرجال .

المحاضرة الثانية

اخواتي واخواني

ذكرت في المحاضرة الأولى معنى التصوف ، والتشابه الموجود بين المعاني الصوفية لدى جميع الملل ، وما يمتاز به التصوف الاسلامي ، وذكرت معنى (العارف) وشروطه ، ونظرة المتصوفة الى الكون ، وان المتصوفة لايحاربون انسانا على انه مجرم او ظالم او مستعمر بل يحاربون الاجرام والظلم والاستعمار وما يكون فيه ايذاء وشر وظلم • ثم ذكرت شيئا عن سيرة الامير عبد القادر عليه رحمة الله في دمشق وكيف تلقاه العلماء فيها ، وذكرت انموذجا من مجالسه ومساجلاته ، ثم ذكرت المراحل الصوفية التي مر عليها ، وجعلت خاتمة الحديث عن طريقة القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي عمل الأمير وابوه عليهما رحمة الله على نشرها ، والدور الذي كان لتلك الطريقة في الاصلاح ، ثم ذكرت لمحة عن الطرق بصورة عامة • ثم ختمت المحاضرة بذكر امور هي التي تلقي النور على شخصية الامير • وفي محاضرتي هذه ساتناول الحديث عن مجموعتين من الابحاث • اما المجموعة الاولى ففيها الحديث :

١ ـ عن نشوء التصوف •

٢ ـ المصدر الذي يستند اليه التصوف •

٣ ـ اعلام من المتصوفة •

٤ ـ تطور معاني التصوف •

واما المجموعة الثانية ففيها الحديث :

١ ـ عن الجزائر في عهد الامير عبد القادر •

٢ ـ الاضاليل التي تذرعت فيها فرنسا للاحتلال وما ذهبت تزعمه من عمل للتمدين ولنشر رسالة الرجل الابيض والرد على ذلك •

٣ - الاضاليل التي نشرتها ضد الامير عبد القادر وما كان لها من تأثير.
٤ - الحديث عن كتاب المواقف .

اذكر ذلك كله تمهيداً لفهم المعاني الصوفية وليمكن ادراك كثير من المعاني التي جاء الأمير على ذكرها في كتاب المواقف الذي سأذكر مقتطفات منه ... وما جئت على ذكر الناحية التاريخية من قضية الجزائر الا للتدليل على ان الجزائر الى جانب مالها من بطولة في النضال ، لها مجد علمي ومكانة سياسية ، وان انتصار الفرنسيين في القرن التاسع عشر لم يكن انتصارا للمدنية كما زعموا ، وانما هو سيف امتشق نحو اناس كان في ايديهم غصون الزيتون ، وكان في قلوبهم ايضا الايمان الذي يخلق مضاء العزيمة ، وبه تتسع النفوس لاسمى المقاصد .

(١)

شاع اسم (المتصوف) اول ما شاع في القرن الثاني ولكنه انتشر في القرن الثالث اي في العصر الذي عبد فيه الهوى وانحرف الناس عن آداب الاسلام وجنح الامراء وولاة الامر الى العتو ومال الجميع الى مفاتن الملذات . وكأن وجود المتصوفة في ذلك العصر وانتشار التصوف فيه نقض لما يذهب اليه نفر من العلماء بان الناس ابناء بيئتهم ، وان هنالك اناسا هم في نفوسهم لهم شخصيتهم وروحهم واستقلالهم الذاتي ، في طليعة هؤلاء رجال الله الذين هم على ايمان بربهم ، والذين يصغر الجبابرة في اعينهم ، وتتضاءل رهبة كل طاغية امامهم ، ولا يخيفهم بأس ولا يستميلهم مال ولا جاه ، يجدون ان من الفرض على نفر من المسلمين - وهم احق الناس ان يكونوا هذا النفر - ان يدعوا الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وانه اذا ارتكبت المحرمات ولم يقم بين المؤمنين من يدعو الى الله ويقاوم الظلم ويقول كلمة الحق ، فالويل الاكبر للجميع .

ومن ثم فالمتصوفة هم الذين انقذوا الحيارى الضالين ، وهم الذين شدوا من عزائم الاخيار ، وهم الذين اصلحوا كثيرا من الاشرار ودفعوا بهم الى الاستقامة ، وهم الذين وقفوا في وجه اصحاب السلطة من الطغاة والزموهم

الحق ، وهم الذين علموا الناس المحبة واشاعوا في الدنيا الصفاء واضفوا على الحياة معاني الطهر والنقاة •

ثم ان المتصوفة فوق كل هذا قوم هجروا الدنيا فانالهم الله اطيب عيش ، وهم اذ خافوا الله فقد حماهم من كل شر ،وهم اذ قصدوا وجهه الكريم فقد اغناهم سبحانه عما سواه ، اما مايبدو من ذل هم فيه فان من اناشيدهم قول قائلهم:

الا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتذلل عزت

قال القشيري مؤرخ الصوفية الكبير في رسالته : ان المسلمين في حياة الرسول وبعده كانوا يتشرفون باسم صحابي ، ثم سمي من بعدهم بالتابعين ، ثم قيل اتباع التابعين ، ثم ظهرت البدع وتعددت النحل فانفرد خواص اهل السنة والمراعون انفاسهم مع الله الحافظون قلوبهم باسم التصوف في عصر الامام احمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة •)

ويقول ابن خلدون في مقدمته : التصوف علم من العلوم الشرعية • واصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية • واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الحياة وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة • وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف • ولما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على الله باسم الصوفية•

قال سهل التستري : اصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب والاقتداء بالسنة ، واكل الحلال ، وكف الاذى وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، واداء الحقوق •

وشرح الامام الغزالي شرعة رجال التصوف فقال : اعلم ان سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له : العلامة الاولى ان

تكون جميع افعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توفيقاته ايرادا واصدارا واقداما واحجاما ، اذ لايمكن سلوك هذا السبيل الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه الا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل اليه من اهمل الفرائض ... اني علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقتهم اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الأخلاق : بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به) .

(٢)

كان اول من حمل علم التصوف واسمه عظيمان احدهما معروف الكرخي والثاني ابراهيم بن ادهم .

اما معروف الكرخي فقد ولد من ابوين فارسيين نصرانيين ، فلما شب عن الطوق اخذ والداه يعلمانه امر دينهما ، ويحدثانه عن الأب والابن والروح القدس . فلم يستطع الايمان باله من ثلاثة وان هذه الثلاثة هي واحد . فغلب على ظنهما انه افسده عليهما بعض المسلمين فحبسه ابوه في خزانة له اياما ثم رق عليه فاخرجه منها ، ولكن معروف عاد اليها فقد الفها واحبها فقال له ابوه : ما الذي حبب اليك هذه الخزانة . قال : ان الذي زعمتما انه افسدني عليكما قد وجدته فيها . قال ابوه : من هو؟ قال : الذي هو مع خلقه اينما كانوا . فلطمه ابوه على وجهه ثم انطلق به الى راهب الكرخ فقص عليه خبره وسأله ان يرقيه . ابتسم الراهب للطفل قال: يابني الحبيب ما الذي افسدك على والديك، واي شيطان نفث في روحك هذا الضلال . قال الفتى : لم يعبث بي احد وانما هو ايماني ورأيي . قال الراهب : ما الذي تؤمن به وتراه ؟ قال : أرى واحدا عمل الاشياء كلها ، ولا يصح ان يشبهه شيء منها لانه لو اشبه شيئا منها لكان

معمولا مثله ، فالخالق لابد ان يكون له صفات الكمال منزها عن الصاحبة والولد. فقال الراهب : مكانك حتى اخرج اليك ، ودخل صومعته ، ثم اخرج دواة وورقا ، ثم اعاد المسئلة عليه وكتب جوابه ، وقال لفيروز - والد معروف - يا فيروز لولا انك قلت لي انه ابنك لقلت : انه من تلاميذ الملائكة : انطلق بفتاك فقد اوشك ان يفسد على عقلي . فانطلق فيروز بفتاه واسلمه بعد ايام لراهب العالية ومكث الراهب العالم اياما يعالج امر الفتى باللين حينا وبالشدة احيانا ثم انه ضربه ضربا مبرحا لتأبيه ان يقول الله ثلاثة فهرب معروف واعتزم ان لا يعود اليه ولا الى والديه . وطوف بارض العراق وحيدا حتى وصل الى الكوفة وكان يلوذ في سفره بالمساجد . قال فدخلت مسجدها فوجدت حلقة من الناس تلتف حول رجل اشهب في وجهه اشراق يشوبه حزن ، وهو يتكلم والناس من حوله كأنما على رؤوسهم الطير فالقيت اليه بمسمعي فسمعته يقول : « من اعرض عن الله بكليته اعرض الله عنه جملة ، ومن اقبل على الله بقلبه اقبل الله برحمته عليه، واقبل بجميع وجوه الخلق اليه ، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتا ما » .

فوقع كلامه في قلبي وكان هذا الشيخ هو ابن السماك فاتجهت الى خالقي، وهو يعلم سري وعلانيتي واستجاب الله تعالى لي فاذا بالشيخ يقطع كلامه ويصمت لحظة ، ثم يهتف بصوت فيه رعدة ، اين الفتى البغدادي ، ورأيت اعين الناس جميعا تكتسح الحلقة ، وتتصفح الوجوه ، ثم امتدت الايدي الي وحملتني الى الشيخ فمسح على رأسي وقبل جبيني وقال : اهلا بالهارب الى مولاه ، اهلا بمن تحبوه عناية الله ، أهلا بمن ربته الملائكة .

وتذكرت الراهب ، الذي قال لابي ، انه من تلاميذ الملائكة ، فبكيت فقال: اتبكي : وانت انت ، قلت : ياسيدي لقد تذكرت كلمة سابقة قال : كلمة الراهب؟ قلت : وقد اخذني العجب نعم ، قال ادع الله له فانك مجاب الدعوة ، فدعوت الله وقد علمت بعد حين ان الراهب قد هداه الله فاسلم ، وحسن اسلامه .

ثم اخذني ابن السماك ، الى سليل بيت النبوة ، على بن موسى الرضا ، فحدثته بامري فقال : اشهد انك من تلاميذ الملائكة ، كما قال الراهب .

ولزم معروف على الرضا ، وعاش مع ابنائه وتلقى العلم في اكرم بيت وافاض الله عليه فيه العلوم حتى عرف بانه عالم اهل البيت ولسانهم المبين ، ثم لقب بامام بغداد وزاهدها ، ثم انتهت اليه مشيخة التصوف وزعامته .

سئل معروف عن المتصوف فقال : من يعيش قانتا متعبدا فانيا لايرى في الكون الارب الكون ولا تشغله الاسباب عن المسبب ، ولا الكائنات عن المكون ، ولا احداث الوجود عن رب الوجود ، ولا يرهب قوة في الارض لان كل قوى الارض في قبضة المهيمن القهار .

وان من اقواله (ان الولي لايكون وليا الا اذا قام بواجبه حيال الامـــة الاسلامية مصلحا لامورها مفرجا لكروبها راحما لافرادها) وكان يقول : «ليس بمسلم من اهتدى في نفسه وقنع بذلك ، ولم يجاهد لينقل هداه الى كل انسان في الحياة » . ويقول : « ان من صالح الدعاء ان يدعو الانسان للامة الاسلامية مع كل ذكر وتسبيح » . ومن كلماته :« ان في الذروة من الجهاد عمل المسلم في سبيل خير اخوانه وعزة المسلمين » .

وكانت هذه الكلمات شعار معروف الكرخي ودثاره ، فلقد حمل رسالة الدعوة للاسلام في عزم وقوة وجاهد لله بقلبه ولسانه ، واهتدى على يديه عشرات الالوف ، وتتلمذ على علمه المئات وكانت حلقات دروسه تمتد وتتسع حتى يعجز صوته عن الوصول الى اطرافها فكان يقوم من تلاميذه مبلغون يصيحون بكلماته في دروسه حتى تصل الى اسماع الالوف المحتشدة .

ومعروف الكرخي احد الدعائم الكبرى في الصرح الصوفي وشيخ من كبار الشيوخ الذين ارشدوا العارفين . وتخرج على يديه ومن حلقته كبار متصوفة بغداد وائمتهم . واليه وفيه تلتقي اكثر السلاسل الصوفية ، وعنه اخذ السرى السقطي وتلميذه الجنيد وقد كان من دعائه (اللهم لاتجعلنا بثناء الناس مغرورين ولا بالستر مفتونين) .

والى معروف انتهت الزعامة العلمية في عصره فكان اماماً يستفتى في الفقه والحديث والتفسير وعلوم الكلام ، وكان الحجة العلم في التصوف والمعارف الالهية بل لقد وصل الى مرتبة الاجتهاد واعترف له بانه مجدد القرن الثاني للهجرة .

قال الامام الغزالي في الاحياء : كان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان اليه ويسألانه ولم يكن في علم الظاهر مثلهما ، فيقال لهما مثلكما يفعل ذلك ؟ فيقولان: كيف نفعل اذا جاءنا امر لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسولة وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « سلوا الصالحين » .

ويقول السبكي في طبقاته : ان احمد بن حنبل سأله ، ما علامة رضاء الله سبحانه ؟ قال : اذا اراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل واغلق عنه باب الجدل، واذا اراد الله بعبد شرا اغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل ، قال احمد: حسبي وحسبك اليوم هذه الكلمات فهي جماع الهدى » . .

وكان رضوان الله عليه مباركا في حياته فقد سبقت له الحسنى ، ومن آياته انه كان مجاب الدعوة كما بشره ابن السماك ، فكان اهل بغداد يلوذون به عند الاحداث يسألونه الدعاء .

(٣)

اما ابراهيم بن ادهم البلخي فهو من ابناء الملوك ولد وفي انامله الذهب وهو وحيد بيت من اعرق بيوت الملك في فارس وقد زهد في النعيم والثراء والجاه وساح في الارض وصحب في مكة المكرمة سفيان الثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات فيها وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين وان من اقواله (طلب الملوك شيئا ففاتهم وطلبناه فوجدناه ولو علموا ما نحن فيه من النعيم لقاتلونا عليه بالسيوف .) روى القشيري ان ابراهيم قال لرجل في الطواف (اعلم انك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات : اولها تغلق ابواب النعمة وتفتح باب الشدة . والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل .

والثالثة تغلق باب الراحة وتغلق باب الجهد . والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر . والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر . والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت .)

(٤)

فالتصوف على هذا شعور بالقداسة وسمو لارفع حالات الانسان وغايته في هذه الحياة ان ييسر للروح النجاة ، وان يسمو بها على المادة ويخلصها من سجنها ويحررها حتى تتصل بالله .

اما قبل ان يشاع لفظ (التصوف) فالمعروف عن الذين تكون كذلك حاله انه (الزاهد) و (الورع) . والحسن البصري المتوفي سنة ٧٢٨ م وكذلك الامام الاوزاعي المتوفي سنة ٧٧٤ م خير من يمثل هذا الصنف الذي كان بين المسلمين في عبادتهما وورعهما وزهدهما وخوفهما من الله وموعظتهما وحكمتهما. اما الحسن البصري ففي كلامه وامثاله اصول لما فاض به ادب الصوفية من بعد في هذه المعاني . ومما روى الجاحظ من كلامه :

(رحم الله عبد كسب طيبا ، وانفق قصدا ، وقدم فضلا ؛ وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضعوها حيث امر الله ، فان من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل الا ان هذا الموت قد اضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ماوجد ذولب فيها فرحا ، فاياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة ، وميعادها النار . ادركت من صدر هذه الامة قوما كانوا اذا جنهم الليل ، فقيام على اطرافهم ، يفترشون خدودهم ، تجري دموعهم على خدودهم يناجون مولاهم في فكاك رقابهم ، اذا عملوا الحسنة سرتهم ، وسألوا الله ان يتقبلها منهم ، واذا عملوا سيئة ساءتهم ، وسألوا الله ان يغفر لهم . يابن آدم ان كان لايغنيك مايكفيك فليس ها هنا شيء يغنيك ، وان كان يغنيك مايكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك ، يابن آدم ، لاتقل شيئا من الحق رياء ولا تتركه حياء) .

وقال الحسن في يوم فطر وقد رأى الناس وهيأتهم : ان الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضمارا لخلقه ، يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته ، فسبق اقوام ففازوا وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون ، اما والله لو ان كشف الغطاء لشغل محسن باحسانه ومسيء باساءته ، عن ترجيل شعر او تجديد ثوب •

اما الامام الاوزراعي فيروي انه دخل على المنصور فقال له بعد حوار طويل:

انك قد اصبحت من هذه الخلافة بالذي اصبحت به والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ، ولقد حدثني عروة بن رويم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ـ ما من راع يبيت غاشا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة ـ فحقيق على الوالي ان يكون لرعيته ناظرا ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالقسط فيما بينهم قائما ، لايتخوف محسنهم منه رهقا ، ولا مسيئهم عدوانا ، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فاتاه جبريل فقال : يا محمد ! ما هذه الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا ـ فكيف بمن سفك دماءهم وشقق ابصارهم ، وانهب اموالهم •

يا امير المؤمنين ، ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدش خدشه اعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال يا محمد ، ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون امتك • ان الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقي الملك لمن قبلك لم يصل اليك • يا امير المؤمنين ولو ان ثوبا من ثياب اهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم ، فكيف بمن يتقصمه ؟ ولو ان ذنوبا من صديد اهل النار صب على ماء لآجنه ، فكيف بمن يتجرعه ؟ ولو ان حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ، وبرد فضلها على عاتقه ؟

واعلم ان السلطان اربعة: امير يظلف[1] نفسه وعماله فذلك له اجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون الف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف • وامير رتع ورتع عماله ، فذلك يحمل اثقالا واثقالا مع اثقاله ، وامير يظلف نفسه

(١) ظلف نفسه عن الشيء كف عنه •

ويرتع عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره • وامير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الاكياس •

ويسرف عبد الله بن علي حاكم الشام العباسي في الظلم وتعقب الامويين وانصارهم ، كما هي حال حكام اليوم الحزبيين بعملهم مع من هم من حزب مغاير ، ثم يريد ان يأخذ فتوى بشرعية اعماله فيستدعي اليه الاوزاعي ليسأله رأيه فيقول ورجاله من حوله بايديهم السيوف :

ياأوزاعي ماترى فيما صنعنا من ازالة ايدي اولئك الظلمة عن البـــلاد والعباد ، اجهاد هو ؟ قال : ايها الامير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى) وكل ما نسأل الله ان يجنب المسلمين وولاة امرهم الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) وقال تقدست اسماؤه (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخوانا) وقال سبحانه (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين • انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) • فحكم الله ان تكون الدعوة من المتنازعين والى المتنازعين الرجوع الى امر الله فمن رجع الى امر الله وجب ان يعدل بينه وبين خصمه ويقسط بينهما • فالطائفة التي تعتدي على الاخرى باتلاف شيء من الانفس والاموال عليها ضمان ما اتلفته •

كان الحاكم العباسي كلمـــا ازداد الاوزاعي كلاما كلما ازدادت عـــلى وجهه علامات الغضب • ثم قال له وهو يتلفت الى السياف وهو الى جانبه : يا اوزاعي ماتقول في اموال بني امية : فاجابه بالرقة التي ما فارقته (ان كانت في ايديهم حراما فهي حرام عليك ايضا ، وان كانت لهم حلالا فلا تحل لك الا بطريق شرعي) فصرفه •

(٥)

كان الغالب على هؤلاء الزهاد جميعهم العبادة والزهد ومحاسبة النفس والخوف من الله ولم يكن الجانب الفكري الفلسفي واضحا في سيرتهم الى ان كان القرن الثالث الهجري حيث غلب على التصوف المعرفة والتأمل والرياضة الروحية والحب الالهي المؤدي الى الفناء • ومعناه ان النفس الانسانيـة التي هبطت من عالم الروح خالطت المادة ففقدت صفاءها واصلها اذ سكنت الى الحياة الجسمية ، وسبيل النفس الى النجاة ان تذكر موطنها الاول وتجاهد لترجع اليه وهذه غاية التصوف لان الروح من الله وقد جاء في القرآن الكريم (قل الروح من امر ربي) وان نجاتها في الخلاص من سجنها بالفناء اي خلاص الانسان من نزعاته واهوائه وارادته الخاصة حتى يكون كل فكره وعمله لله وبالله •

وليس الميزان هو تحاشيه من الخلق وانما ان يخليه منه له • وفي هذا الفناء وعي لعالم اخر فيه انوار واسرار وما تتذوقه الروح وتهنأ به النفس ، عالم جميل اروع مايكون الجمال ، بهي اسمى مايكون البهاء • قال الهجويرى في كشف المحجوب (الفناء درجة كمال يبلغها العارفون الذين تحرروا من آلام المجاهدة وخلصوا من سجن المقامات والأحوال والذين انتهى بهم الطلب الى الكشف فرأوا كل مرئي ، وسمعوا كل مسموع وادركوا كل اسرار القلب والذين اعترفوا بنقص كشفهم فاعرضوا عن كل شيء وفنوا في مقصدهم وفنيت في هذا المقصد كل مقاصدهم) •

اما سبيل الفناء فبالحب الالهي وبالعشق وبأن يخلع العبد نعليه • ففي ذلك يكون الاتصال بالله وبذلك الاتصال تدرك الحقيقة • ولكن الاتصال الكامل لم يدركه سوى الانبياء • وعلى هذا فالصوفي الحق ينبغي ان يمخر في سفينة الاسلام ويجاهد بمصارعة موج الاغيار ليبلغ السلامة • قال في (تحفة الابرار في علوم القلوب

والاسرار) [١] (الفناء ان تغيب عنك بوجوده ويأخذك عنك بشهوده ، علما بان ظلمة الاطماع تمنع انوار المشاهدة • فالعبد المؤمن كلما جدد حقيقة الايمان اقتضى تجديده ذلك ، فناء عوالم الاكوان ، اذ التوحيد الحق غض الطرف عن الاكوان بمشاهدة مكونها • واكثر مايحجب الانسان عنه سبحانه العجب ، وهو فضلة حمق يغطي به صاحبه عيوب نفسه • قيل للقطب الرباني كيف الخلاص من العجب فقال رضي الله عنه من رأى الاشياء من الله وانه هو الذي وفقه لعمل الخير ، واخرج نفسه من البين فقد سلم من العجب) • فمن خلص نفسه من المهالك قوى على المسالك ، ومن قوي على المسالك اشرف على الممالك شرفا يوصله الى المالك • لان مدارج العلوم تكون بالوسائط واما مدارج الحقائق فلا تكون الا بالتقوى المؤدية للمكاشفة (واتقوا الله ويعلمكم الله) حتى اذا ما طلعت شمس المعرفة من مشارق التوحيد افلت كواكب الاثار وغابت نجوم الاغيار) • وقال (التصوف اليوم اسم لا حقيقة وقد كان حقيقة ولا اسم •واصل التصوف هو ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الاهواء والبدع ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، والمداومة على الاوراد ، واقامة المعاذير للخلق • وليس شيء اضر بالمريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات ، وايثار صحبة الاغنياء على مجالسة الفقراء ، فان من لم يتجنب ذلك ابتلاه الله تعالى بموت القلب • واول مقامات التصوف ان تكون على الحال التي امر بها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) ثم ان الصوفي كما قال الشبلي (اذا استقبله حالان او خلقان كلاهما حسن كان مع الاحسن) هذا وان الانسان لب في قشر وان عليه حفظ لبه بصيانة

---

(١) الكتاب لسيدي ابراهيم المرابط الحسني صاحب المقام الذي بالقرب من موضعه انتصر الامير عبد القادر على الفرنسيين باهم معركة خاضها قبل استسلامه بسنتين اي سنة ١٢٦٢ هـ وسنة ١٨٤٥ م بين (تفجيرت) و (المرسى) ، وكان عدد جنوده يومئذ الفين من الخياله وعشرة آلاف من المشاة في حين جيش الفرنسيين كان مائة الف وستة الاف • ويروى انه قتل تحته يومئذ ثلاثة خيول في تلك المعركة •

واما السيد ابراهيم المرابط الحسني فهو الداعية الى الله في القرن الحادي عشر والذي هدى الله عن يده الوفاً من الوثنيين وتاب عشرات الالوف عن يده وصلح حالهم وهو قادري الطريقة والجد الثالث للسيد عبد الرحمن المرابط اول مهاجر من اسرة المرابط الى دمشق •

قشره ، لا يستشرى فيه شيء ليبلغ السبعية • لان في كل انسان بذور السبعية خلقت فيه لتحميه فهي سلاحه • والذي يخاف منه لا الانسان بفطرته بل كَلَب السبعية • وكل انسان يخطىء ويضل وقد يكذب ، والذي يهجر انما هو الخطأ والضلال والكذب • ثم ان الانسان فيه كل مايحب وان مايحب فيه قوه في نفسك وفي غيرك وسل واهب النعم المزيد منه ومن كل نعمة وفضيلة • ومبدأ وصال الاحسن انما هو بهجران الاقبح ، واجالة الفكر في نظام الخليقة يحلي النفس بجمال الفضيلة) •

اما منهاج السلوك فقد حدده المتصوفة انه يكون في الصمت والتواضع والصبر والذكر • ولكن الاكسير الفعال هو التصعيد بمواجيد الشوق وهيام الايمان وهو ما يعرف بالعشق او الحب الالهي فبه يقتحم السالك كل عقبة • انما عليه قبل كل شيء ان ينفض يده ويطهر قلبه ويقطع صلته عن نفسه وعن كل مايرغب فيه • وقد اعتبر المتصوفة ان الحب الالهي هو جوهر التصوف وسمته الكبرى وبه يتحول القلب الى مرصد يتلقى الاشراق والنور من الله • واعني بالحب ما تتهافت عليه النفس بعاطفة حارة في الابتهال ومشاهدة الجمال المطلق الساري في كل ذرة ابدعها الخالق العظيم • فاذا احب انسان الاحسان فما يكون احب الا المحسن وهو الله ، وان احب النعم فما يكون احب الا المنعم وهو الله • والمتصوفة المسلمون هم وحدهم الذين يعدون سدنة العشق الالهي وارباب محرابه ، وهم وحدهم الذين رفعوا راية الرحمة الواسعة نحو كل شيء يسرى فيه سر الحياة ، وربطوا بين المخلوقات برباط من الوجد والحب والهيام على اساس ان حب كل شيء في هذا الوجود متفرع عن حب مبدع الوجود • ومن هذا الافق افق الحب العام بكل شيء في الوجود جاءت عقيدة الوحدة الشاملة بين المخلوقات والشعور باوثق الصلة مع كل انسان •

(٦)

اعود للحديث عن المرحلة الاولى من مراحل التصوف بالامير عبد القادر وهي مرحلة التعليم وتجديد العهد الاسلامي وجمع المريدين بنشر الطريقة

القادرية ومجابهة عدوان الافرنسيين وعنفهم بالدفاع الشريف • وقد قلت ان استعمال السلاح لم يكن ضد الانسان الفرنسي بل ضد الاستعمار الفرنسي • وقد كانت مكاتبات الامير لشخصياتهم البارزة ومعاملته لاسراهم من قواد وكبار ضباط ما يشعر عن روح النبالة التي تعرف باسم الفتوة وهي التي عرفت في الغرب باسم (الفروسية) •

« والفتوة » تعرف في الاسلام انها الصفح عن زلات الناس والتماس المعاذير لهم ، وان يستخدم الفتى قوته في نصرة الضعيف من مظلوم وفقير ويتيم وعاجز ، وان يعتبر ان ليس له في الناس عدو ولكن اغبياء وضالون من الواجب تعليمهم وهدايتهم • ولذلك كان الامير رغم محاربة الفرنسيين له ونقضهم العهود معه المرة تلو المرة وتنمرهم بغدر كأنهم وحوش في غابة صلال وذئاب ، وتدميرهم القرى وانتهاكهم الاعراض واستباحتهم الاموال ، كان يعمل ليشق بينه وبينهم نوافذ على عالم الروح ليغمرهم النور وليعمر قلبهم الايمان بالله والخوف من عواقب الظلم ، بل كان يذكرهم بمبادىء حقوق الانسان التي هم انفسهم يباهون العالم انهم اعلنوها وانهم الامة التي يقدسون مبادئها ثم انه كان يناشدهم بان الناس يجب ان يبقوا اخوة يعطرون العالم بعبير الصفاء والمحبة ، فيعملون متعاونين لخيرهم انفسهم ولخدمة الجمال الاسمى الذي منه الشعاع المضيء للقلوب، وبه يحنو انسان على انسان وتنمو معه اكرم العواطف التي اعدتها العناية الالهية في النفوس •

وقد ذكر فيليب شانترين بكتابه (عبد القادر المؤمن)ان الفرنسيين لما عادوا في ١٦ تشرين الاول ١٨٣٩ ونقضوا معاهدة (تفنا) لجأ الامير الى الوسائل الدبلوماسية ، وكتب الى السلطان العثماني يسأله النجدة • واخذ يتودد الى الحكومة البريطانية وكان سبيله اليها قنصلها في تونس وقنصلها في طنجة وكتب الى قائد القوات البريطانية الفيلد مارشال فيكونت هيل ، مقترحا عليه تبادل المنافع مع البريطانيين • وقال له ان العرب يفتقرون الى السلاح لمقاومة السيطرة

الفرنسية • فاذا قدمه لهم الانكليز يكسبون صداقات عربية ذات شأن في مراكش وتونس والجزائر وطرابلس الغرب •

وكان عبد القادر في مخاطبته الدول وتعامله معها ذا منطق واقعي مؤثر ، فقد كان يبرز باستمرار المصالح المشتركة بينه وبين هذه الدول ، وكان يحرص على جلاء المنافع المتبادلة ، ويبحث عن نقاط الالتقاء في الحقل المادي والمعنوي• وكان فوق ذلك يذكر بالمبادىء السياسية والاخلاقية ، شأن المؤمن بقضيته ورسالته •

ولما وقعت معركة « سيدي ابراهيم » في ٢٣ ايلول ١٨٤٥ التي انتصر فيها الامير انتصارا باهرا ، وكانت على الفرنسيين كارثة عظيمة ، ثم توالت انتصاراته حتى كاد ان يسترد البلاد ، ادرك أن هذه الانتصارات الجديدة سوف تزيد من حنق الفرنسيين عليه • فهيأ هجوما سياسيا مضادا لتفادي الاحتمالات العسكرية الفرنسية ، ويدفع عنه ما قد يصيبه بسببها من عواقب اشد خطرا ، فبعث برسله عن طريق طنجة الى جبل طارق ، يقول للانكليز « ان الصداقة العربية اجدى لهم من الصداقة الفرنسية » •

واوفد مبعوثيه الى لندن وباريس وروما وبرلين ، وفيينا واستانبول وبطرسبورج ليدافعوا فيها عن قضية « الجزائر العربية المستقلة » •

لقد اقر الفلاسفة والفقهاء في كل عصر حق الدفاع عن النفس ومقاومة العدوان والتمرد على الطغيان • ونضال الشعوب من اجل حريتها يعتبر حقا مقدسا بل قد اكتسب اخيرا مناهضة الاستعمار تكريسا حقوقيا مذ اعلان حق الشعوب في تقرير مصيرها في المادتين ١و٥٥ من ميثاق الامم المتحدة • وقدقررت الامم المتحدة ايضا انهاء النظام الاستعماري بالقرار ١٥١٤المؤرخ ١٥ كانون‌الاول ١٩٦٠ وقد جاء فيه (ان الجمعية العامة للامم المتحدة تعلن رسميا ضرورة وضع حد للاستعمار في جميع اشكاله ومظاهره وبصورة عاجلة وبلا قيد ولا شرط) ولكن الواقع ان هذا القرار ما حقق انتصارا بالوسائل السلمية ولم يكن للبلاد المستعمرة مناص من اللجوء الى القوة •

وقوض الجزائريون بقوتهم وايمانهم وبالتضحيات التي قدموها نظام الاستعمار في بلادهم المبني على الظلم ، ولكن العظيم من الامر هو ما اتبعه المفكرون بالجزائر منذ بطلهم الاول الامير عبد القادر وباصالة فذة ، من اساليب تمكنوا معها من اكتساب الرأي العالمي الذي اعانهم على مهمتهم وكفاحهم •

لقد كلف الجزائريون غاليا امر اعتدالهم واحترامهم الحقوق في ثورتهم ضد الافرنسيين المستعمرين الذين ما كانوا يرعون حقاً • وقد اقتطف الجزائريون ثمن صبرهم وجعل اعمالهم تنسجم مع القانون الدولي ومهارتهم في استخدام اخطاء المستعمرين من اجل الدعاوة لقضيتهم ، واليهم يعود الفضل الاكبر بان اعلنت الجمعية العمومية للامم المتحدة تحت ضغط الرأي العام العالمي (ضرورة وضع حد عاجل وغير مشروط للاستعمار في جميع اشكاله ومظاهره) •

ان روح الفتوة ومعنى الجهاد على ذلك الشكل الذي ذكرناه اي بحيث يكون لمقاومة العدوان ولدفع الاضطهاد ولتحرير البلاد دون جنوح لقتال الا من يكون بيده السلاح وبترفع عن استعمال الغدر او نقض العهود رغم اباحة المستعمرين لانفسهم استعمال الغدر ونقض العهود ، هو الذي مكن الجزائريين ان يجعلوا بلادهم تدخل ولو تدريجيا في دولاب الحياة الدولية لتكسب عن ذلك الطريق عطف الرأي العام العالمي • وليس من شك ان الجزائريين كانوا قدوة في اعمالهم للشعوب الملونة في جميع افريقيا • وان من الثابت لو لم ينجح الجزائريون في تحرير بلادهم وهو ما اعانهم عليه براعتهم السياسية وكسبهم التأييد الكلي لاكثرية الدول المحبة للسلام ، لما استطاعت دول افريقيا كسب حريتها بالسهولة التي اكتسبتها •

ونحن اذ نسجل ذلك نذكر بان اول من سلك طريق الحرب الشريفة والكفاح بالشكل الذي لايكون فيه الا الكسب للرأي العام العالمي انما هو الامير عبد القادر •

لقد كان الامير يمتاز بالعقل الواسع والقلب الكبير ، فهو حكيم ، بعيد النظر ، ويرى اهدافه بوضوح • وقد قاد الحرب بشجاعة وثبات ، وشرف التاريخ

بسالته وبصبره على المكاره وبشدة مراسه في الذود عن حياض الوطن ببطولة تعتبر من اعظم البطولات • ولكنه ما قاتل الا من كان يقاتله ، ثم انه ما نقض عهدا ، وعامل الاسرى اكرم معاملة كما ذكرناه • ولذلك كان مما يسجل لنابليون الثالث من مأثرة انه زار الامير عبد القادر بقصر (امبواز) عندما غدر به وسجن فيه ، واعتذر له عما وقع واهداه سيفا ورتب له مبلغا من المال يدفع اليه كل شهر تعويضاً عن املاكه التي استولت عليها الحكومة الفرنسية •

ولما وقعت حادثة الستين في دمشق سنة ١٢٧٧هـ و ١٨٩٠م ومأساتها معروفة فقد وقف الامير الموقف الواجب على كل مواطن شريف فضلا عن موقف المسلم التقي وذكر الاهلين بوحدة الوطن ، وبالمثل الاسلامية العالمية ، وبروح الشهامة في دم كل عربي ، وقد التجأ الى داره كل خائف وضعيف ، واسعف المنكوبين وآوى المشردين • فاهدته الحكومة العثمانية والدول الاوروبية الاوسمة تقديرا لعمله • ثم انه زار سنة ١٢٨١ هـ الاستانة وقابل السلطان عبد العزيز وسعى لديه في العفو عن المبعدين من اعيان دمشق بتهمة التغاضي والتقصير في الواجب• ثم زار باريس لتهدئة الخواطر وازالة اثار تلك الحوادث ، فزاد نابليون الثالث مرتبة الشهري لازدياد ريع الاملاك التي كانت للأمير • وقرر مجمع الخالدين الفرنسي الذي عرف عن الامير مشاركة واسعة للعلوم اختياره عضوا إمراسلا • وفي سنة ١٢٨٦ هـ و ١٨٦٩ م حضر الاحتفال بافتتاح قناة السويس •

وكل ذلك النشاط كان فيه مما يذكر العالم بالجزائر وبمأساتها ، كما كان فيه ما يخطط للكيفية التي يجب التزامها لكسب الرأي العام من اجل القضية الجزائرية ولو في اعتا الظروف •

ان الأمير عبد القادر الذي كان على عقيدة ان من اثبت لنفسه تواضعاً اثبت لنفسه شيئاً من التكبر،لأن الاشياء كلهامستوية في الخلقة بنظر المتصوفه ، وان من خلق فأعطى له سبحانه الفضل والمنة ان لم يخلق على شكل مشوه او ممسوخ او على غير خلقة الناس ولو شاء لما اعطى ولا انعم ، وان من واجبات المسلم مجاهدة نفسه وكبح جماح اهوائه ، وان يعترف بان الله هو الخلق لما عليه

الخلق ، ولو شاء لخلق الصحيح معتلا والكامل ناقصاً والأمير حقيراً والذكر انثى والانسان حشرة - ان الأمير عبد القادر عليه رحمة الله اذ كانت تلك عقيدته ، فلم يكن يظهر بمظهر العظماء ويلتزم صورة من خلق ليحكم وتبدو عليه امارات السؤدد والعز ، ومن ثم سافر لمقابلة السلطان وزار باريز للاجتماع بنابليون الثالث ، وقبل ان يكون عضواً في مجمع الخالدين ، ورضي ان تؤخذ صورته وعلى صدره ارفع اوسمة الدول ، وحضر ابهى احتفال جرى في عصره بحضور اعظم الملوك وهو افتتاح قناة السويس ، وان يلقب باسم (الجزائري) عوضا عن (الحسني) ، لم يكن منه كل ذلك ، الا لتبقى (الجزائر) متسلطة عليها الانوار لها ما يطفو بذكرها وماتتجه اليه الابصار .

وما اجمل الصوفي الأنف مما يقبل عليه الناس ، الزاهد في متاع الغرور ، الا يؤثر ما يتفق مع هنائه الروحي ، بل يبدو انه من اصحاب الأبهة ، له مع الدنيا علاقة يتحاسد عليها الناس - لا لشيء الا قياماً بواجب ، وليكون قدوة ، وقد كان خير قدوة لمجاهدين وابطال ورجال فكرهم احفاده واحفاد الذين استماتوا معه ، التقوا جميعهم في الماضي والحاضر على صعيد التجرد في بسالتهم وجهادهم وخدماتهم وفي تصرفاتهم التي الفتها من ابنائها الجزائر .

(٧)

عرفت المعاهدة التي عقدت بين الامير عبد القادر والجنرال (بيجو) في ٣٠ مايس سنة ١٨٣٧ باسم معاهدة (التفنا) اعترف فيها بسلطة الامير على سائر الجزائر باستثناء منطقة قسطنطينة التي ظلت تحت سلطة (البيك) الذي عينه داي الجزائر ، وبضع مناطق اخرى ضيقة الرقعة تحت الاحتلال الافرنسي العسكري . ولكن الفرنسيين غدروا بالامير بعد ذلك على ما سنشرحه فيما بعد وواصلوا مؤامراتهم ضده حتى نفذت ذخيرته مما سبب استسلامه .

وكان بعد ذلك الاستعمار .

وكانت تنهض سياسة الاستعمار اول ماتنهض على عدم تعليم احد من الاهلين وايجاد كل عقبة امام المتعلمين والعمل لاستئصالهم . وهذه

الشـريعة الاستعماريـة عامـة لـدى جميـع الـدول المستعمرة فهي تقضي على المتعلمين في جملة ما يقضى عليه من عصاة ومتمردين واحرار • وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية تمنع تعليم الزنوج القراءة والكتابة ، وكان كل ابيض يعلم زنجيا يعاقب بالحبس •

ثم لما بدىء باستغلال الجزائر فقد اسس المستعمرون من المدارس الابتدائية مايمكن معه تعليم الترجمة فيها وفي الاماكن التي يتطلبها الاستغلال • وقد رافق هذا نشر لغة المستعمر وما يحببهم به حتى يستسلم لهيمنته عن طواعية• وقد جاء في مناهج الاخلاق في مدارس الجزائر ان مايجب تعليمه (القيام بالواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها اليهم ، والعدل الذي ادخلته الى بلادهم ، والامن الذي نشرته في ربوعهم ، ونعم التعليم والحضارة التي اغدقتها عليهم••• الاحترام الذي يجب ان يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا، والاحترام الذي يجب ان يظهروه نحو العلم الفرنسي) •

وامر ثالث اهتم به الاستعمار من ناحية التعليم هو ان يكون التعليم بغـير تثقيف ، بحيث يجعل المتعلم آلة صماء في ايدي الاستعمار •

يقول بول سارتر في مقدمته على كتاب (الكادحون في الارض لفانون) (جرى المستعمرون على اجبار السكان المحليين على العمل بالاكراه ، وقد اصبح التخويف والقلق والاضطهاد والترويع هو السياسة التي تتبع معهم ••• ان جنودنا وراء البحار يطبقون على النوع الانساني مبدأ التمييز العنصري نابذين الافكار العالمية الرائجة في اوطانهم • فمادام اي انسان لايستطيع سلب شبيهه او استعباده او قتله دون جريمة فانهم يضعون مبدأ ان المستعمر ليس شبيها بالانسان وكانت مهمة قوتنا الضاربة ان تحول هذه الفكرة المجردة الى واقع ملموس • واعطى الامر بان يوضع سكان المستعمرات في مرتبة القرود العليا لتبرير معاملة المعمر لهم معاملة الحيوانات • ان العنف الاستعماري لايهدف فقط الى منع هؤلاء الرجال المستعبدين من كل حركة احتجاج او معارضة بل هو يسعى الى تجريدهم من انسانيتهم ، وليس هناك شيء يراعى في تصفية تراثهم واحلال لغاتنا محل

لغاتهم وتحطيم ثقافتهم دون اعطائهم ثقافتنا ، بل انا نقتل فيهم الحيوية بواسطة الانهاك المستمر بالجوع والمرض • فاذا قاوموا جاء الخوف ليكمل العمل وتصوب البنادق الى الفلاح ويأتي مدنيون يستقرون في ارضه ويجبرونه بالسياط ان يفلحها لهم ، فاذا قاوم اطلق الجنود النار عليه • ورغم كل الجهود المبذولة فان الهدف لم يتحقق في اي مكان ، لا في الكونغو حيث كانوا يقطعون الايدي ولا في انغولا حيث كانوا حتى المدة الاخيرة فقط يثقبون شفاه الساخطين ليقفلوها بقفل حديدي • وانا لا ازعم ان من المستحيل تحويل الانسان الى حيوان ، وانما اقول انه لايمكن الوصول الى ذلك بدون اضعافه الى اقصى الحدود ، ان الضربات لاتكفي بل يجب دفع سوء التغذية الى اقصى مداه ، وهذه عقدة المشاكل في الاستعباد : فاذا استعبدنا احد اعضاء نوعنا انقصنا انتاجه ومهما كان مانعطيه ضئيلا فان عبدا نهبط به الى مرتبة الحيوان الداجن يكلف اكثر مما ينتج ، ولهذا السبب يضطر المعمرون الى وقف عملية الترويض والاستعباد في منتصف الطريق والنتيجة هي الحصول على شيء ليس هو انسانا ولا حيوانا وهو ما يسمى (بالاهلي) انه شخص مضطهد ناقص التغذية ، مريض ، خائف ولكن الى حد معين فقط •

يا للمعمر المسكين ، هذا تناقضه مكشوف في العراء • يجب عليه كما يقال عن الجن ان يقتل من يسلبهم ، ولكن هذا غير ممكن ، اذ يجب عليه ايضا ان يستغلهم وهو اذا لم يرفع التقتيل الى حد الابادة والعبودية الى حد التوحش فانه يفقد زمام المبادرة وتنقلب العملية ضده •

وتتوالى عمليات الكادرياج والتطهير والتمشيط والتجميع والحملات التأديبية فتقتيل النساء والاطفال • ولكن هذا الانسان الجديد الذي يصمم من اجل التحرر باي ثمن يبدأ حياته من النهاية اي يعتبر نفسه ميتا (بالقوة) ، وانه سيقتل وهو مايكون منبع شجاعة لاتصدق • لقد كنا زارعي الريح وكان هو العاصفة ، انه غدا ابن العنف فهو يستمد من العنف في كل لحظة انسانيته) •

قال (بيير كوت) رئيس الجمعية الدولية للحقوقيين الديمقراطيين (ان استعمال التعذيب ومعسكرات تجميع السكان المسلمين ، وتطبيق التشريع

الاستثنائي لتخويل المحاكم العسكرية بالحكم على المدنيين والقيود الموضوعة على حق الدفاع ، كل ذلك يجعلنا ان نفكر في المدى الذي وصلت اليه الاخلاق في الدول التي اصيبت بداء الاستعمار ٠٠٠٠ ان الاستعمار الافرنسي هو الذي اثار بفظائعه وعي الشعب الجزائري لوحدته ورغبته في الاستقلال ٠٠٠ واستمرار الضغط هو الذي أدى الى تلك النتيجة) ٠

(٨)

كان الفرنسيون ينكرون ان هنالك في الجزائر امة ٠ ومثل قولهم هذا كانوا يقولونه عن السوريين ينكرون على كل الا انه مجموعة فئات وطوائف ومجموعات بشرية ، الى ان تأججت الثـورات وانتزع كلا الفريقين اسـتقلاله بالحديد والنار ٠ وكان من براعة الجزائريين انهم منذ تأليفهم حكومتهم الموقتة في ١٩ ايلول ١٩٥٨ ان ارسلت حكومتهم في اليوم ذاته الى رؤساء الحكومات مذكرة توضح فيها ان الدولة الجزائرية وحكومتها اللتين تطلب الاعتراف بهما (لايؤلفان كيانات حقوقية طارئة بقدر ما هو تكريس لشرعية انبعاث دولة ذات وجود سابق) ٠ وهو ما كانت فرنسا تنكره على الجزائريين بل كانت تنتشر حتى في المعاهد العلمية ان الجزائر التي كانت تعمها الفوضى والبربرية اصبحت فرنسية بعد غزو بطولي قاده الجنرال (بيجو) ٠ بل صرح رئيس الحكومة الفرنسية في ١٦ ايلول ١٩٥٩ قال (منذ كان العالم عالما فانه لم تكن هناك وحدة جزائرية ولا سيادة جزائرية فابناء قرطاجة والرومان والفاندال والبيزنطيين وعرب سورية وعرب قرطبة والترك والفرنسيون عمروا الجزائر الواحد تلو الاخر ولكنه لم يحدث ان قامت في وقت من الاوقات باية صورة من الصور دولة جزائرية) ٠

على ان استقلال الجزائر يؤيده ماذكره شارل اندريه جوليان في كتابـه « تاريخ افريقيا الشمالية » قال (لقد كان للجزائر استقلالها ولم تكن مرتبطة بتركيا الا برباط معنوي : خليفة الاسلام وكانت اكثر حرية في شؤونها الداخلية من اي بلد من بلدان الكومنولث البريطاني حيال بريطانيا العظمى ٠ والدليل

على هذا الاستقلال نجده في عقد الجزائر معاهدات مع عدة دول منها فرنسا وهولاندا وبريطانيا العظمى واسبانيا، والبرتغال والدانيمارك، والولايات المتحدة• ونجد ممارسة الجزائر للاستقلال في اعترافها بالجمهورية الفرنسية الاولى في العشرينن من مايس ١٧٩٣ وقع ذلك داي الجزائر ، كذلك اعتراف حكومة الجزائر بالولايات الاميركية المتحدة بمجرد انتهاء حرب الاستقلال • وقد اعقب هذا الاعتراف معاهدة جددت في ١٨١٥ و ١٨١٦•

وانه لمما يشرف الشعب الجزائري انه بسائر الوسائل ، من اكثرها سلمية الى اشدها عنفا قد سجل باستمرار رفضه التسليم « بالسيادة » الفرنسية والواقع الاستعماري الجائر •

ولم تجد فرنسا طريقها الى الجزائر الا بعد حرب استمرت اربعين عاما (١٨٣٠ – ١٨٧١) تخللتها معارك دموية منها معارك بيليسية في عام ١٨٤٩ التي وقعت في جنوب وهران ، ومنها معارك لاغوات لي عام ١٨٥٢ ومنها معارك القبائل في ١٨٥٣ وفي عام ١٨٥٧ ، ومنها انتفاضة بني سناسن في ١٨٥٩ في مقاطعة وهران ، ومنها مقاومة اولاد سيدي الشيخ في ١٨٦٤ ومنها ثورة الشهيد الخالد الشيخ المقراني في القبائل عام ١٨٧١ وقد هاجر رفاقه الى الشام واقاموا فيها • وقد تلا ذلك حركة المطالبة التي تزعمها الامير خالد حفيد الامير عبد القادر في السنوات العشرين ثم قيام جمعية علماء الجزائر برئاسة الشيخ الجليل بن باديس في ١٩٣١ وما نشره من بيان باسم الشعب الجزائري في ١٠ شباط ١٩٤٣ وقد عقب ذلك مظاهرات ١٠ من حزيران مما سبب ذبح اربعين الفا من اهالي قسطنطينه وحدها ثم كانت ثورة الجزائر في غرة تشرين الثاني لعام ١٩٥٤) •

(٩)

يقول الكاتب الفرنسي المعروف كلود بورده مدير مجلة فرانس اوبسرفاتور « انه كانت لفرنسة علاقات دبلوماسية مع الجزائر منذ عام ١٥٦١ • ووجدت في حالة حرب معها في معظم الاوقات وقد خطب ودها مرات عديدة ، من ملوك

فرنسة ، هنري الرابع وفرنسوا الاول • وعقدت بين الجزائر وبين بريطانية وهولندة والولايات المتحدة معاهدات كثيرة منذ سنة ١٧٩٥ •

وقد كان السبب المباشر لاحتلال فرنسة الجزائر ، ليس ما يقال من ان « الداي » هدد القنصل الفرنسي فغضبت فرنسة واحتلت الجزائر انتقاما • لا • بل السبب المباشر للاحتلال انه كان للجزائر دين على « الجمهورية الاولى » الفرنسية وتقاضت الجزائر يوما « الحكومة الملكية الفرنسية » هذا الدين ، فرفضت ان تدفع • فاخذ « الداي حسين » بعض التدابير الضرورية تجاه التجار الفرنسيين المقيمين في الجزائر • فاغتنمت فرنسة الفرصة وكانت تتوق الى التوسع والى استعمار الجزائر الغنية ، وباغتت الجزائر (دون اعلان حرب كما يفعل القرصان تماما) وانزلت جيوشها على الشواطىء ثم اعلنت ان الجزائر رضيت بالاحتلال الفرنسي ، مع ان الحقيقة الواقعة تكذب ذلك بالثورات المتواصلة التي قامت ضد الاحتلال •

ويمضي كلود بورده قائلا : « ان الكتب المدرسية في فرنسة تنشر ان الاحتلال الفرنسي للجزائر صفحة مشرقة في تاريخ فرنسة• ويرد كلود بورده على هذه الناحية بقوله (والواقع حقيقة غير ذلك ، ففي ٦ نيسان من سنة ١٨٣٢ اباد الجنرال « روفيكو » قبيلة « حلوفي » لتهمة سرقة الصقت بها وهي منها براء • لقدْ خرجت كتيبة فرنسية من مدينة الجزائر ليلا وفاجأت مخيم هذه القبيلة وهم نيام • فذبح الجنود الفرنسيون افراد القبيلة ذبح النعاج • ولم يتمكن احد من الدفاع عن نفسه ولم ينج احد من المجزرة ، حتى النساء والشيوخ والاطفال ، كان نصيبهم الموت • وفي سنة ١٨٤٥ قام الجنرالية «كوفتيان وبلسير وارنود » بخنق عدة قبائل في مغاور « سدوا عليهم جميع منافذها واحرقوهم فيها كما احرقوا قرى بني سالم وبني القاسم • وخلال الفترة بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٤٠ بدأ الفرنسيون بسلب اراضي الوطنيين بواسطة قوانين ظاهرها شرعي ، والحقيقة كما يقول المتشرع « لارثر » انها انما وضعت لتسهيل عملية السلب والنهب • وفي ٢١ آذار من سنة ١٨٤٣ صودر كثير من الاملاك بينها اراضي الوقف الاسلامي • وفي تشرين الاول سنة ١٨٤٤ وفي ٣١ تموز سنة ١٨٤٦

صدر قراران يجيزان مصادرة الاراضي « غير المعتنى بها » والاراضي التي لايحمل اصحابها سندات تملك ، ومعظم القبائل المالكة هذه الاراضي لاتملك مثل هذه السندات ، فصودرت منها اراضيها .

وقد كانت نتيجة عمليات السلب تقوم بها ام الحرية والنور والعدل والتمدن والتي استمرت ١٢٠ سنة ، ان اصبح ـ كما يقول ـ كلود برودة ـ نحو ٢٥ الف ملاك اوروبي يملكون مليونين وسبعمائة وعشرين الف هكتار من الاراضي التي تؤلف معظم المساحات الخصبة في الجزائر . وهم وحدهم الذين يستعملون الوسائل الزراعية الحديثة ، لان نسبة المساعدة المالية من الصناديق الجزائرية للقروض الزراعية ٩٩٪ للاوروبيين ، وواحد٪ فقط للعرب ؟

(١٠)

اوضحنا كيف ان الفرنسيين كانوا ينكرون على الجزائريين انهم امة وانه لم يكن لهم كيان دولي واثبتنا كيف انه كان لهم دولة وسيادة ، واوضحنا كيف ان الفرنسيين كانوا يزعمون ان الجزائريين راضين بحكمهم وابنا ان الجزائريين ما انقطعوا بمقاومتهم الاستعمار ورفضهم التنازل عن استقلالهم ، وذكرنا كيف ان الفرنسيين يزعمون ان حكمهم مثالي بعدالته وكيف انهم جردوا الجزائريين من املاكهم بالاساليب التشريعية بزعم الاصلاح ولتسجيل العقارات وتحديد الملكية.

وقد ذكرنا ان معاهدة (التفنا) المؤرخة ٣٠ مايس ١٨٣٧ كانت اعترفت بسلطة الامير على سائر الجزائر باستثناء منطقة قسطنطينة التي ظلت تحت سلطة (البيك) الذي عينه داي الجزائر وبضع مناطق اخرى ضيقة الرقعة كانت تحت احتلال الفرنسيين العسكري . وقد كان بمقتضى ما اتفق عليه اقصاء خمسة عشر موظفا كبيرا كانوا يقومون بتعكير العلاقات وبيع الف قنطار من البارود وثلاثة الاف بندقية تسلم خلال ثلاثة اشهر .

ولكن فرنسا ما عتمت ان أشاعت انها ستسلم السلاح للامير وانه اصبح لها حليفا وان السلاح الذي ستمده به انما قصده منه الاستيلاء على مراكش ولينصب

نفسه سلطانا مكان سلطانها • كما اشاعوا في الوقت نفسه انه سيستولي على منطقة قسطنطينة التي ظلت تحت سلطة (البيك) الذي كان قد عينه الداي • واشاعوا ايضا ان الحرب عندما بدأت بين اتراك الجزائر والفرنسيين سنة ١٨٢٩ ان الامير ووالده امتنعا من الانضمام الى حسن بيك حاكم وهران الذي كان يقاتل دفاعا عن الوطن الجزائري مما سبب ان يستسلم الحاكم •

مع ان الواقع هو ان حسن بيك استسلم قبل ان تأتيه النجدة وقبل ان يجمع الامير من يمكنه به من المقاومة بدليل انه ما ان استسلم حتى تولى القتال السيد محي الدين واظهر خلال الحرب ابنه عبد القادر من البسالة والاقدام والبراعة في التعبئة ونصب الكمائن والقتال بعدة جبهات ما جمع له القلوب وعقد به آمال الناس حتى اجتمع الاهلون لمبايعة السيد محي الدين الذي اعتذر بعلو سنه مما جعلهم ان يبايعوا ولده عبد القادر في ٢١ تشرين الثاني ١٨٣٢ بالامارة وكان المراد مبايعته بالسلطنة ولكن الامير نفسه هو الذي رفض ذلك مراعاة لسلطان فاس •

والغرض من تلك الاشاعات التي نشرتها فرنسا بواسطة عملائها ان يسهل عليها من جهة الاتفاق مع سلطان فاس، وليسد على الامير طريق استيرادالاسلحة من بلاده ، ولكي يقف الاتراك وحاكم قسطنطينة الى جانب فرنسا ضد الامير عبد القادر •

وبعد ان تم لفرنسا كل ذلك فقد فاجأت الامير بالغارة على مكامن قوته واعلنت ان الامير هو الذي غدر •

والحقيقة التي لا شك فيها ولا شبهة هو ان السبب الاقوى لانتصار المستعمرين على الامير عبد القادر ولاستيلائهم على الجزائر ثم تونس فمراكش انما يعود ، الى جانب ما كانت تجده الدسائس من رواج ، ما نسيه ولاة الامر في كل من مراكش وتونس ، ماكان نصح به اكثم بن صيفي اولاده عند موته وهو انه استدعى اضمامة من السهام وتقدم الى كل واحد منهم ان يكسرها فلم يقدر ثم بددها وتقدم اليهم ان يكسروها فاستسهلوا كسرها • فقال : كونوا مجتمعين

ليعجز من ناوأكم عن كسركم كعجزكم عن كسرها مجتمعة ، فانكم ان تفرقتم سهل كسركم • وانشد :

كونوا جميعا ، يا بني ، اذا اعترى   خطب ، ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح ، اذا اجتمعن تكسرا ،   واذا افترقن تكسرت افرادا

اشاعت فرنسا بكل الوسائل التي كانت تملكها في ذلك الحين ، ان الامير عبد القادر سيولي وجهة فتوحاته نحو مراكش • مما جعل ان تقع فتنة في ذلك الحين بين القطرين الشقيقين ، وان يمنع سلطان مراكش ارسال الاعانات التي تجمعت لمساعدة الامير عبد القادر ، ووقف الاسلحة التي كانت معدة لارسالها اليه • ثم كان من جراء بعض الخلافات المحلية على الحدود مع بعض الجزائريين ان تقدمت قوى عسكرية مراكشية ضد الامير عبد القادر • وقد كان الفرنسيون في ذلك الوقت نقضوا معاهدتهم مع الامير وفاجأوه بغدر مباغت • ثم ان كثيرا من القبائل والجنود الذين كانوا معه قد اضناهم التعب والتحقوا بقراهم وعادوا لاهاليهم ، مما اصبح من المستحيل على الامير مواصلة حربه مع الفرنسيين •

اما محاربة المراكشيين فهذا شيءلم يسمح الاميربه لنفسهالا بقدر ما يدافع به • والذين انطلت عليهم الدسائس من المراكشيين لم يفسحوا له حتى مجال التفاهم او التفاوض او العمل لازالة سوء التفاهم وما فوجيء به من خصومة بتهمة هو منها بريء •

لذلك كان لابد له من الاستسلام لاحد الفريقين اما الى المراكشيين واما الى الفرنسيين •

وفي ١٥ كانون الاول ١٨٤٧ أي قبل استسلامه للفرنسيين باسبوع كامل جلس منعزلا في الصحراء بعد صلاة اداها بعظيم خشوع، وكانت الشمس في الأصيل ثم مالت نحو الغروب ثم احمرت ترنو من الأفق البعيد ثم غابت ، فصلى ثم عاد الى جلسته التي كان عليها متجها نحو القبلة ، يستلهم سكون الليل ونسيم الظلام ، فاذا بذلك الملاك الطاهر الذي رفعه الىسماء المثاليةالمقدسة بتربيته ،وهي

أمه، وكانت تتبعه كظله الى الاقاصي البعيدة البعيدة في جهاده،وتشرب معه كؤوس النصر كما تشهد معه زوابع الحياة ، وكانت على علم بما كان يفكر فيه ... هو الكيفية التي سيجلو معها عن وطنه الطاهر وبلاد آبائه المقدسة وانه امسى وكأنه فيها على امواج مزبدة غضوب .

وقفت الأم بقامتها المنحنية بعض الشيء وقالت له بصوت فيه الرأفة والوداعة بعد ان رددت نظرتها بين ابنها وبين السماء الزرقاء وقد اطل منها قمر عليه لون شاحب حزين : (يا بني لا تحزن واذكر في هذا الموطن قوله تعالى (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) وان بعد الفر كرا ، واذكر قول زفر بن الحارث معتذرا عن هزيمته من وقعة مرج راهط :

ايذهب يوم واحد ان اسأته بصالح ايامي وحسن بلائيا ؟

ان معركة خاسرة لاتحسب شيئاً أمام معارك كنت فيها المنتصر دائماً . والله قد عودك الجميل .)

لم تكن الأم تدري شيئا عن موقف مراكش الاخير . فلما أخبرها الأمير بذلك وختم قوله مستشهدا بقوله تعالى (فان تولوا فاعلم أنما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون ... ومن يتولهم منكم فانه منهم . ان الله لايهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة) الى قوله تعالى (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ؟! حبطت اعمالهم فاصبحوا خاسرين).

قالت (ان من يزرع الزوان هو وحده الذي سيحصد الهشيم . اما أنت يابني فستبسم لك الايام بعد العبوس) .

ثم نظرت اليه نظرة فيها العطف والحنان وعلى وجهها مسحه من حزن خفي تشير عليه فقالت (يا ولدي ، اذا استسلمت للفرنسيين فهم لابد يقدرون لك عدة مواقف في معاملتك لاسراهم ، وفي مراسلاتك لشخصيات كبرى فيهم. وهم ينظرون اليك انك ضحية ، ومعتدى عليك ، وانك دافعت عن بلادك لاخلاص ولوفاء منك ، ولم يسجلوا عليك غدرا ولا نقضا للعهد) .

وقد جعل قولها المحور الذي اخذ يفكر فيه • وان الفرنسيين اذا غدروا به ، ما يكون من عملهم الا ان يسجل ذلك عليهم ، حتى يصبح عملهم هذا سبب نقمة عامة لدى الجزائريين ، وباعث وحدتهم ، وعبرة للمراكشيين ولمن سيأتي بعده حتى يصبح القتال ضدهم حتى الاستماته •

ثم انه بدأ الفكرة من ناحية اخرى وهي :

هل يجب عليه ان يستميت في قتاله ، او الاصح له وللقضية الجزائرية ان يستسلم •

اما الحرب ضد الفرنسيين فكان يؤمن انه بامكانه مواصلتها • فاذا كان فيها الموت فهو احدى الحسنيين • اما حربه ضد مراكش فهذا الذي لم يرده ولا اجازه لنفسه • واذا واصل المراكشيون تقدمهم فلابد من ان تهرق الدماء بين الجزائريين والمراكشيين وهو ما لايفيد منه الا الفرنسيون • وعلى ذلك اذ شعر انه هو نفسه اي شخصيته بالذات هي السبب في حرب المراكشيين فقد استيقن انه بانسحابه لايعود هنالك خلاف بين مراكش والجزائر ، وان من المحتمل ان يعود القطران جبهة واحدة في محاربة الفرنسيين • وهذا ان لم يكن عاجلا فمن المحتمل ان يكون ذلك آجلا •

ثم فكر بامر الاستسلام •

هو ان استسلامه اذا كان للمراكشيين فان من المحتمل كثيرا ان من حول السلطان اذ كانوا مقتنعين بانه يطمع بالسلطنة وقد انطلت عليهم الدسيسة الفرنسية ، فلا يبعد ان تنطلي عليهم دسيسة اخرى مثلها او شر منها • وخشية منهم على انفسهم وعلى سلطانهم ولكي يكون من عملهم عبرة ، فلا يبعد ان يسجنوه وان لايتركوه حرا ، خشية ان يجدد اطماعا له على زعمهم ، ويلتف حوله مشبوهون ••• والسياسة دائما لها مفاجآت في البلاد التي تضطرب فيها الاحوال ، لاسيما التي تكون هدف اطماع المستعمرين •

ثم خيل اليه انه اذا استسلم الى مراكش وغدر به، فان ذلك يعمق الخلاف بين القطرين الشقيقين •

ولذلك كله ، فقد آثر الاستسلام للفرنسيين • ولم يستسلم الا بعد قتله القضية درسا •

وكان اعظم ما وضعه في الميزان ان المراكشيين اذ منعوا الامدادات عن الجزائريين بسبب ما دس انه يطمع بالعدوان على مراكش ، وان السلاح الذي سيأخذه من فرنسا بموجب معاهدة (تفنا) سيقاتلهم فيه ، ومن ثم فان وجوده هو السبب في الخلاف بين مراكش والجزائر ، فقد اعتبر ان بانسحابه يعود الوفاق، مما يجعل الفرنسيين ان يتحسبوا من مواصلتهم العدوان وتوسعهم ، ويجعل القطرين ان ينتبها للدسائس حتى لاتتكرر ، وان يصبحا جبهة واحدة ضد العدوان •

لقد آثر التخلي عن الامارة والاستسلام للفرنسيين التماسا لازالة الخلاف بين المغرب العربي والجزائر وعقيدة منه ان لابد من ان تنكشف حقيقة التهمة التي دست عنه ، وان يكون في ذلك عبرة ، ويعود ذلك التعاون بين الجزائر ومراكش •

كان من رأيه ان التعاون بين الجزائر والمغرب العربي لابد ان يتبعه تعاون تونس ، بل تعاون شمال افريقيا وان بذلك تكون الحماية الحقيقية لتلك البلاد •

وفي سبيل ذلك يهون تنازل امير عن امارته •

انه لم يتكلم عن ذلك كما يتكلم اناس عن الوحدة العربية اليوم بخطابات رنانة وبيانات بليغة كأن القضية عبارة عن مسرحية تمثل ، بل انه ترك الاحداث هي التي تنساق نحو تلك الغاية ••••

ولكن المهم هو امر الأستعداد في الأمة لأن كل شيء يسري فيه سر الحياة لاينال الا ما يتفق مع مقتضى استعداده • ومن ثم كان حديث الأمير مطولا عن الاستعداد وعن الحكمة الالهية في ذلك قال في الموقف الثاني والثلاثين من كتابه ، قال تعالى : (واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان) ، اعلم ان الحق تعالى لايعطي احدا ما يطلبه بلسان مقاله الا اذا وافق طلب لسانه طلب

استعداده ، فاذا خالف طلب الاستعداد طلب اللسان فلا يعطي تعالى الا ما طلبه الاستعداد كائنا ما كان ذلك الطالب وذلك المطلوب • فلو طلب القار تبييض لونه ما اجابه الحق لان استعداده يطلب خلافه وهو السواد ، ولو طلبت شقة الكتان مثلا تسويدها ما اجاب الحق سؤالها لان استعدادها يطلب خلاف ذلك ، وهو تبييضها ، والانسان قد يكون له استعداد الطلب باللسان وما يكون له استعداد قبول المطلوب • فاذا سأل احد من الحق تعالى شيئا ولم يعطه اياه ، فانما ذلك لكون استعداده طلب خلافه وليس له استعداد لقبول ذلك المطلوب ، والا فتعالى الحق ان يمنع احدا عن بخل ، فالآية الكريمة وان كانت مطلقة في ظاهر اللفظ فهي مقيدة بطلب الاستعداد وسؤاله ، فان مدار الامر كله على الاستعداد للقبول ، والحق تعالى حكيم لايعطي احدا شيئا هو غير طالب له باستعداده فيكون مستعدا لقبوله ؛ فلو عمد الملك مثلا الى خزائن السلاح فاعطاها العلماء مطلبهم اياها منه ، وعمد الى خزائن الكتب ففرقها على الجند لطلبهم اياها منه ، ما كان حكيما لان العالم غير مستعد لاستعمال السلاح والحرب ولو طلب السلاح بلسانه ، والجندي غير مستعد لفهم الكتب ولو طلبها بلسانه ، والله عليم حكيم •) اهـ

لقد كرر الأمير عليه رحمة الله حديثه عن (الاستعداد) في اكثر من عشرة مواضع من كتابه المواقف نظراً لأهمية الموضوع •

و (الاستعداد) هو الذي نبه اليه الله في محكم التنزيل اذ قال : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) •

ايريد الوالد من ولده ان يصبح طبيباً بارعاً او مهندساً ماهراً اذن عليه ان يحسن تعليمه وعلى الولد ان يواصل الدراسة •

ايريد انسان ان يكون السعيد في حياته الهانىء في ضميره الناجح في اعماله ، ان هذا لايمكن ان يكون لانسان لا يميز بين الوفاء والغدر ، ولا يفرق بين النظام والفوضى ، ويؤثر الراحة على الكدح •

فما يهيء المرء اليه نفسه هو الذي يناله ••••

والأمة كذلك ، فهي لاتتهيأ لها اسباب الرقي ولا يشق في وجهها السبيل الى المجد ولا ينجيها من مهالك ، اذا ما كان ولاة امورها دعاة تفريق ، ليؤمنوا لأنفسهم السلطة ، بتأييد فريق لهم ينتفع معهم ، على فريق هو الذي يكون الغنيمة .

ان وثبة التقدم تحتاج لمن تمتلىء قلوبهم بمعاني التجرد وحب كل حي في الوطن بل كل ذرة من ذرات الوطن .

وسر (الاستعداد) في الأحاد وفي الأمم هو ان يكون الانسان شريف القلب عالي الهمه لا يتحرك الا عن وعي ويعمل بفكر وعلى استقامة ، والايمان بان خير الانظمة وافضل العقائد وارقى العلوم لايفيد شيء من ذلك ولا يخلق المواطن الصالح اذا لم يرافق ذلك تعبئة روحية تفرض الاخلاص وتعلم انكار الذات ، كما ضرب الامير لذلك اروع مثل في اول يوم اجتمع فيه لمبايعته فهو لم يقبل مبايعته باسم (سلطان) رغبة منه لتكون المغرب العربي الى جانب الجزائر في جهادها ، وكما ضرب الأمير لذلك ايضاً اروع مثل في اليوم الذي تخلى فيه عن الامارة .

واذا لم يكن في سيرة الامير عبد القادر الا ما ذكرت من امور حدثت قبل وبعد اليوم الأخير من نهاية حكمه ، وهو الحديث عن الدسائس التي تفسد ما بين الاخوة الاشقاء ، والحديث عن السبب في انه لحق استعمار الجزائر الاستيلاء على تونس ثم مراكش ، والحديث عن الاستعداد والتهيؤ له وان الامم لاتنال الا ما تستحقه بما تهيء نفسها اليه اي ما تتأهل له باستعدادها ، لكان في ذلك لنا نبراس ينير السبيل لشيء اتمنى لو ان ولاة الامور في البلاد العربية يدركونه في الواقع الذي يعيشونه في الحاضر ولا سيما بعد نكبة فلسطين، فذلك خير من هذا السخط من بعضهم على بعض بما يفسد القلوب ويضني العقول وخير لهم من هذا التراشق بالتهم وزعم كل منهم بما تخيل اليه نفسه انه لم يسبق لرب العزة ان خلق مثله ولا يوفق انسان غيره الى مثل ما يجيده وما هو ساع اليه .

وبالتالي يذكرون حقائق يجب ان لاتغيب عن الاذهان :

يذكرون ان من حق امتهم عليهم ، من حق وطنهم الكبير ، من حق الاجيال القادمة ، بل من الحق المقدس الذي يأمرهم به دينهم وعروبتهم ، ان يوحدوا بين أقوالهم وأفعالهم ، لايكون بينهم من جعل كل ما أعده هو زعمه أنه تقدمي ، لان جميع البلاد يجب أن تعمل للتقدم وللأخذ باسباب الرقي ، ولايكون بينهم من جعل كل ما اعده هو زعمه أنه محافظ ، لأن جميع البلاد يجب ان تكون محافظة على تراثها وحقوقها وعلى امجادها وعلى أخلاقها وعلى السامي من تقاليدها .

ولايكون مما يعيق اجتماع الكلمة الاختلاف بالانظمة الحكومية او الدستورية او الحزبية او المذهبية ، بل تكون هناك جبهة واحدة مؤمنة بحق امتها وحق وطنها ،

لايهدرون بضيق نظرتهم مالهم من طاقات وثروات وعدد ومكانة وسعة بلاد ومركز جغرافي ممتاز وما يمكنهم به أن يفرضوا احترامهم .

يذكرون ، وان كان بعد مضي وقت طويل ، هو أن البلاد العربية بانقسامها بين دول مصطنعة ، لايكون لها حظ من الوجود الذاتي والمصالح الخاصة ، الا قدر ما يكون لكل اقليم ومحافظة بل ولكل بلدة وكل قرية من وجود ذاتي ومصالح خاصة ، لأن تلك الدول انشأها الاستعمار في الوطن الواحد قصد تقسيم الامة بعضها مصحوبا ذلك بتضخيم المنافع التي قد تكون من جراء ذلك الانقسام ، ويخلق مايرتد بالأسى على الامة والوطن والاخلاق والمعاني الانسانية وبما يلهي عن اسباب الرقي الحقيقي ، وما ينقلب معه اليقين الى شك والمثل الاعلى الى وهم وخيال .

ويذكرون ان وحدة الكلمة هي التي تجعل لهم الكفاءة الاقتصادية للتصنيع والاكتفاء الذاتي من الحاجي ، وحل مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية .

ويذكرون ان وحدتهم هي التي تجعل لهم القوة ، وأن قوة الوحدة هي التي تمكنهم من انتزاع حقوق مسلوبة وبلاد مغصوبة وكرامة مهانة .

وقوة الوحدة هي التي يمكنهم بها من مكافحة الفقر والجهل والتخلف .
وقوة الوحدة هي التي يمكنها ان تكون افضل عامل لتطبيق برنامج التقدم للتقدميين .
وقوة الوحدة هي التي يمكنها ان تكون خير سبب لتنفيذا مناهج المحافظين.
وقوة الوحدة هي التي تخلد ذكرا وتورث فخرا .

ويذكرون بعد ، ان دولة أقيمت على قطعة من بلادهم على أفدح أنواع الظلم اريد بها قطع وحدة امتهم وتهديد امنها وامتصاص طاقاتها ، وهذه الدولة المصطنعة تتلقى المساعدات المالية والاقتصادية والعسكرية من فرانسة وبريطانيا والمانيا الغربية والولايات المتحدة دون توقف بسلسلة منتظمة في مخطط واحد تتوزع بينها الادوار دون اكتراث بنا .

ويذكرون ان تلك الدولـة التي اصبح وجودها عامـل قلق يهدد بمحن وكوارث لايمكن لأيما دولة عربية وحدها ان تقوم بعمل حاسم ضدها ، بل ان كل عمل من ذلك النوع ينقلب الى غير غايته ، وان لاغنى للدول العربية من كسب صداقات العالم وان تضعف مساندة كل من يساند اسرائيل ... وان ذلك هو الدور الذي يجب أن تلعبه الديبلوماسية قبل ان يوقت للمعركة ، وان كان كسب الذين يؤمنون بالحرية ويناضلون ضد الاستعمار ومن أجل السلام هو الجهة التي ينبغي ان تنشد مساندتها الفعلية .

ويذكرون أيضا ان الدول التي تمد دولة العصابات بالمساعدات لم تتحد الرأي العـام العربي ، وهي لم تكترث بشـعوره الوطني الا لما تستيقنه من أن القائمين على الحكم في البلاد العربية محاطون بموالين وعملاء بحيث أنها على ثقة بأنهم لابد ناجحون في مهمتهم وفيما يخططونه لهم في الظلام وهو العمل ليتمكن العداء بينهم (أي بين ولاة الامور) بما يلهيهم عن مناهضة اسرائيل عمليا، ويحول دون وحدتهم او اجتماع كلمتهم ، وبالتالي تجزأة طاقة الدفاع العربية وتجميد انطلاق قدرتها .

ثم يذكرون بأن كل من يسمح للمستعمرين انسياقهم في تأييد اسرائيل ومدها بالسلاح بسبب من أنانيته وغروره وكونه لايفكر الا بالمصالح المحليـة

والشخصية ، فان مسؤوليته لاتقل عن مسؤولية المستعمرين في دعم اسرائيل وتقويتها ، وانه من حيث يدري أو لايدري يستخدم كما تستخدم اسرائيل نفسها لخدمة الاستعمار في مواجهة نهضة العالم العربي تلك النهضة التي لايمكن ان يكون لها وجود الا عن طريق وحدتهم وطريق رسالة الهدى التي تنير القلب وترفع النفس وتجعل القزم عملاقا .

ويذكرون اخيرا أن مايواجه العرب اليوم من تحديات ضخمة من اعظم أعوانه ثلاثة أمور :

اولها ـ الانخداع بدسائس وشائعات تفتح بينهم ثغرات تنسيهم موطن الخطر الحقيقي وبما تمتص معه طاقة نضالهم وتبعدهم عن الهدف وتجعلهم ينقسمون بين طبقات ومذاهب حزبية واقاليم .

ثانيها ـ تشكيك الامة بمبادئها وبما تقوم عليه ذاتيتها وما تتحطم معه فكرتها عن تاريخها ومجد ابطالها .

ثالثها ـ اختلاف العاملين بقضايا العرب العامة على الاتفاق من اجل مجابهة ما تتحداهم به الاحداث . فكأنهم لازالوا على تلك الكلمة التي اطلقها المرحوم جمال الدين الافغاني صائحا في وجوههم مندداً " انكم تتفقون على الاختلاف باختلافكم على الاتفاق ! فكأنكم تتفقون على الا تتفقوا ، ولاتقوم على هذا، ياقوم ، قائمة » .

(١١)

على ان الواجب يحتم الاعتراف بان المغرب العربي وقف موقف المؤيد للمجاهدين الجزائريين منذ بدء العدوان الفرنسي ، وكان الامير عبد القادر على صلة مودة مع السلطان ، وكان يعلمه بالخطط التي يعملها ويعرض عليه مايلاقيه من صعوبات وما ينتصره من انتصارات ، وكانت الهدايا والرسائل متواصلة بينهما وان من جملتها كتاب قال فيه الامير : « بان نفسه تميل الى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحملته من اعباء الامارة في زمان كثر فيه العدو وفسدت فيه الاخلاق»

وان السلطان عبد الرحمن اجابه برسالة طويلة مؤرخة في ذي القعدة سنة ١٢٥٤ جاء فيها (وكيف يسوغ لك التقصي وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الاسلام وانتظم امر الخاص والعام ۰۰۰۰ ولن تعدم من الله عونا ومددا ، ومن صالحي المؤمنين عدة وعددا) وكان كثير من الرجالات المراكشيين يلتحقون بالمجاهدين الجزائريين وكان منهم من يرسل اليه الاموال والاسلحة – حتى كانت موقعة (ايسلي) في ٤ اغسطس ١٨٤٤ حيث انهزمت الجيوش المغربية وكادت فرنسا تحتل القسم الشرقي من مراكش ۰ وان في جملة من صاح للتعاون والجهاد من اهل المغرب مع الجزائريين الوزير ابن ادريس قال :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم — الى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم — من بعد ما سام اهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه — من عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت — عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبلو من خواتمه — فعنده المكر والمكروه في نمط
وانتم القصد لا تبقن في دعة — ان السكون الى الاعدا من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه — كيف الحياة مع الحيات في سفط
قد يغبط الحر في عز يخلده — وليس حي على ذل بمغتبط

(١٢)

لقد كانت للامير كفايات عظيمة وقوة احتمال وصبر منعدم النظير ،وكان يكتفي عند الحاجة بنوم ساعة واحدة وهو على ظهر الحصان متنقلا من جهة الى جهة ، مضت عليه عدة اشهر واحداث هائلة اضطرته لركوب ذلك المركب الخشن عدة مرات خلال حربه التي استمرت ستة عشر عاما۰وكان كل ما يعمله يؤديه بمنتهى الفطنة والدقة والجسارة ۰ وكان يتسم بالهدوء والاناة وضبط النفس مع شيء من مظاهر الترفع ، فكان يحسن بكرم الى المجلي في الحروب

او الذي يجب تقديره والاحسان اليه ، بنفس المظهر الذي يكون فيه عندما يطبق الشرع على الخائن ، لا بهذا يبدو عليه شيء من امارات الغضب والانفعال ، ولا بذاك يظهر عليه شيء من خفة السرور • ولقد كان معتدلا في جميع اعماله متيقظا لادق الامور • وقلما كان يجسر احد ان يبدي له رأياً دون ان يسأله • وكان من النضوج بحيث ما كان يعتمد في امر الا على نفسه ورأيه ••• كان ينصت دائما الى الصوت الذي يكلمه من قلبه ومن دخيلة نفسه ، ليس معنى هذا انه لم يكن يمحص الامور وانه لايستعين برأي غيره • كلا ، بل انه كان مثاليا في تمحيصه وفي الاستعانة برأي الاخيار ، بيد انه كان لايرجع في النهاية الا الى رأيه نفسه • اما في الامور التي تقتضي السرعة فكان من اسرع القادة حزما وبحله المشاكل بصورة عملية ••• كان من رأيه ان الذي يفرغ للامور كل جهوده ، ويتخذ جميع ما يستطيعه من الاسباب ، ويقوم بواجبه على ما يرضي الله سبحانه ويرتاح اليه ضميره ، ليس عليه ان يخاف او يقلق • انما الخوف يكون لمن لايقوم بواجبه ، والقلق انما هو نصيب الذي لايعمل ما يرتاح اليه الضمير ••• ومن هنا كانت سكينته وهدوء نفسه •

وانه يزيده من صفاته تلك انه لم يكن مغامرا ولا قليل الصبر ولا يترك المسائل العرضية ان تلهيه عن هدفه الاصلي ، وان كان يهتم للعارض قدر اهتمامه بالجوهر • وقد كان فوق كل ذلك يحرص كل الحرص على سمعته علما منه بان الطابع الذي تطبع به سمعة رجل من الشخصيات العامة له تأثير كبير في نجاحه او فشله •

يالحسرة البلاد التي يكون للمستعمرين مطامع فيها • لان من شأن المستعمرين ان يلطخوا سمعة المخلصين من رجالاتها •

فلما علم الامير ان الفرنسيين اطلقوا حوله شائعات انطلت على المراكشيين ، وانطلت على الاتراك ، وانطلت على قسم من رؤساء القبائل الذين كانوا يقاتلون معه - فقد رأى انه بتخليه عن الامارة يكون قد هدم بضربة واحدة كل تلك الدسائس ، مما يحفظ له شخصيته ليلعب دورا سياسيا ربما تساعده عليه الايام •

لقد انتصر في الحرب النفسية على عدوه عند استسلامه لذلك العدو •

وقد كان لذلك الاستسلام معنى من معاني النصر •

وهو نصر لم يحز مثله الا القليل النادر من افذاذ الرجال اذا ما خانتهم الظروف •

فهو حتى عند الاستسلام لم يفقد الثقة التي كان يتحسس فيها ، تلك الثقة التي اوصلته الى الاوج وجعلته من مشاهير الرجال، لأنها ثقة لم تكن تعتمد على المادة وحدها وعلى قوة الشخصية بل وعلى الايمان بالله الذي لايتخلى عن عبده حتى اذا انزل في رمسه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا الله ارحم بالعبد اذا وسد في حفرته من امه وابيه) •

فكيف بهذا العبد اذا لم يكن بعد قد مات ثم عاش على انه جندي وقف حياته وامواله على خدمة امته والذود عن حياض وطنه •

لقد هيأ الأمير بتنازله عن الامارة لدور تقوم به مراكش والجزائر معا • ولكن هذا الدور كان يحتاج الى جسارة واقدام حال دونهما ما شعرت فيه الجزائر من هزيمة بتنازل الامير ، وقد كانت المعارك انهكتها ، كما حال دونهما حاشية سلطان مراكش وقد كانت في مستواها على وعي ادنى بكثير من المستوى الذي كان هيأه الامير عبد القادر بتنازله عن الامارة •

واخيرا فالأمير عليه رحمة الله بحكم انه جزائري فهو لم ينس الجزائر بعد ابعاده عنها ، وهو بحكم انه كان امير الجزائر كان يتصرف في حياته على ما يرفع من اعتبار الجزائر • كان لايترك فرصة دون ان ينتهزها ليكون له فيها كلمة لا لشيء الا ليبقى في العالم صوت يذكر بالجزائر ••• ولو من بعيد •••

وهو لم يكن يخشى مودة يبديها له عدو ••• لانه راض نفسه على الصبر وعلى كسب الخصوم وادراك ما في النفوس من حرص على المصالح ، وهذه الميزات كانت له مصدر قوة ومن شأنها انها جعلته كثير التعمق في الامور ، وينظر دائما الى الافق البعيد •

قلت في محاضرتي الاولى ان الشيخ عبد الرزاق البيطار كان اول من اقترح على الامير ان يدون ما يذكره في مجالسه ، وانه كان يجتمع في داره كبار العلماء. وقد كان يتدارس معهم تفسير القرآن وشرح الحديث والفقه والتاريخ وقد كان في جملة ما درسه هو نفسه الفتوحات المكية . وقد اوفد الى قونيه عالمين جليلين صححا نسخته على النسخة الاصلية المكتوبة بخط الشيخ محي الدين قدس الله سره وقد كان ذلك سنة ١٢٨٨ هـ .

وكتاب المواقف يتألف من ثلاثة اجزاء ب ١٥٠٠ صفحة . وفيه مباحث صوفية وتفسير وشرح احاديث ونكات لغوية وبسط للعقيدة الاسلامية . وقد قال ماٍيمهد النظر بهذه المباحث في الموقف المائتين والواحد والثلاثين .(ان كل ماتقوله الطائفة العلية رضي الله عنها له دليل من الكتاب والسنة عرفه من عرفه وجهله من جهله لان طريقتهم مؤسسة على الكتاب والسنة غير ان من علومهم امورا وجدانيات لا يمكن ان يقام عليها دليل ولا تحد بحد .

وذلك ان القوم رضوان الله عليهم لما استقامت ظواهرهم وبواطنهم على الطاعات واتباع السنة قولا وعملا وحالا قوى نور ايمانهم فثوروا اي بحثوا قاموس القرآن والسنة ، اذ ذلك بستانهم الذي فيه يتنزهون ، وفي ارجائه يترددون ، ظهرت لهم منها اشياء كانت مندمجة مستورة عن العموم وما هي بخارجة عن الاصل الذي هو الكتاب والسنة ولا زائدة عليه حتى يقال الحقيقة غير الشريعة . كلا وحاشا وانما ظهرت اسرار الكتاب والسنة واشاراتهما ظهور السمن من اللبن عندما خض وحرك . فهل يقال السمن ليس من اللبن . وانما كان السمن باطنا في اللبن فظهر منه عندما خض صورة غير الصورة المعروفة من اللبن وهو هو . فاقبل يا اخي ما جاءك من كلام اهل الله تعالى اعني الصادقين لا كلام كل ناعق . فما فهمته علي وجهه فتلك الغنيمة الباردة . وما اعتاص عنك فهمه فكله الى اهله كما تفعل في متشابه الكتاب والسنة مع التصديق به ،

الى ان يأتي الله بالفتح او امر من عنده بدلالتك على من يفك لك معماه ويفصح لك عن معناه) . اهـ

فقول الامير (ان كل ما تقوله الطائفة العلية له دليل من الكتاب والسنة ... وانما هنالك اسرار واشارات وعلوم وجدانية مستورة عن العموم) . فيه اشارة الى حقائق يلهمها النساك والزاهدون والمقبلون على الله بتجرد واخلاص يعجز عنها فكر العامة ، وتدرك بصائرهم ما لا يدركه سواهم فهم ملهمون ولكن ببركة سيرهم على الكتاب والسنة[1] .

فالمواقف على شبه عظيم في كثير من مباحثها بما في الفتوحات المكية . بمعنى ان فيها ما فلسف التصوف . لان المتصوفة عدا انهم الذين يتبعون رياضة نفسية بالزهد والعبادة والتقشف فانهم على انواع : منهم من فلسف التصوف كابن عربي والجيلي والسهروردي ، ومنهم من شرح طريقته كالقشيري وابي طالب المكي ، ومنهم من عد انه من شعرائهم كابن الفارض وعبد الغني النابلسي وجلال الدين الرومي (وهو امام الشعر الصوفي في الاسلام حتى قالوا فيه وفي كتابه (المثنوي) انه ليس نبيا ولكن اوتي كتابا) . ومنهم من جعل التصوف مدرسة خرج منها

---

(١) كل انسان يفكر حسب مستواه الذهني الذي يستمده من معارفه وعقيدته وطبقته وزمنه. والواقع الفعلي ان كل حي مزود بغرائز هي التي تعطي السلوك قوة النشاط . وهذه الغرائز اذا ما وجهت في الانسان على استقامه ، وتم السلوك بالعقل المدرب ، كان هنالك الفكر الذي لايمكن ان يكون مثله للعامة .

والناس عامة لايخلون من الهامات . بيد ان منهم من يكون ذا هبة نادره خارجه عن نطاق الملكات الذهنية .... ونحن نشاهد اقل مراتب ذلك في بداية التفكير والاستدلال عند عامة الناس.

غير ان ذلك لايجيز لنا بوجه من الوجوه الاعتماد على ما يطلق عليه (الكشف) يقوم به ادعياء. بل الواجب ان يكون حدود الالهام في نطاق التبصر والاستدلال المنطقي ، وان لا يخرج الانسان في امر دينه عن نص يرجع اليه معتمدا على الاجتهاد الاصولي ، اي على العقل المدرب على منهج منطقي يعرف بالاسلام تحت اسم (اصول الفقه) .

ان تجنب الاهواء وعدم الاسترسال مع الاستنتاجات غير المنطقيةمبدأ من مبادىء سلامة الفكر لمعرفة الحقائق . والعلم الصحيح ما كانت تقوم له قائمة لولا التفكير الموضوعي غير الشخصي ..

اقول ذلك مع الاعتراف بان من الناس من عرف لهم الجلاء الفكري ، كما عرف لغيرهم الجلاء البصري ، وعرف لمن سواهم الجلاء السمعي ، وان هنالك ملهمين ببركة سيرهم على الكتاب والسنة كما ذكر الامير عليه رحمة الله .

مربين ومجاهدين ودعاة الى الله كالشيخ عبد القادر الجيلاني في العراق والسيد احمد البدوي في مصر والشيخ ارسلان في دمشق .

ولكن جميع هؤلاء يجمعهم مقصد واحد وغاية واحدة هي التي امر الله فيها بمحكم كتابه قال : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان امره فرطا) .

وهذا الصبر الذي يأمر الله به يشرحه الفضيل بن عياض بقوله (يا ابن آدم انما يفضلك الغني بيومين : امس قد خلا ، وغد لم يأت ، فان صبرت يومك احمدت امرك وقويت على غدك ، وان جزعت يومك اذ ممت امرك وضعفت عن غدك . وان الصبر يورث البرء ، وان الجزع يورث السقم ، وبالسقم يكون الموت ، وبالبرء تكون الحياة) . ومثله قول الحسن البصري (يا ابن آدم ان كان لا يغنيك ما يكفيك فليس ها هنا شيء يغنيك ، وان كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك . واياك وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار) .

واقول ، بعد عرضي المراد من الصبر ما قاله اسد الله خان الشهير باسم (غالب) وهو اكبر شاعر عرفته اللغة الاردية (اتظن ان هذا هو الكل ؟ كلا . ان ما ظهر لشيء يسير في زي الازهار وشقائق النعمان . فلا تسل عما توارى تحت التراب من الوجوه الجميلة) .

والناس كما لايخفى انواع : عامة وخاصة ، وخاصة الخاصة ، قال الامير في الموقف المايتين والثمانية : (قال تعالى (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) ، ومعنى الآية ان الله سبحانه ما ارسل رسولا الا بلسان قومه ،ولسان قومه هم استعدادهم الذي يفهمون عنه ما يكلمهم به ، اذ المقصود من الكلام والخطاب افهام المخاطب ، ولا يكون الفهم الا بالاستعداد ولو خاطب احدا منهم بغير لسانه الذي هو استعداده ما فهم عنه ما يقول ، وبطلت فائدة الخطاب . واما اللسان الذي يكون سماعه بالاذن فقط فغير كاف في المقصود من الخطاب وهو

الفهم ، ولذا قال تعالى (ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم) وقال تعالى (وتعيها اذن واعية) وقال تعالى (انما يستجيب الذين يسمعون) وقال تعالى (لهم آذان لايسمعون بها) وقال (انك لاتسمع الصم الدعاء) وما كان صممهم من جهة آذانهم وانما كان صممهم من جهة استعدادهم وعدم قبولهم وفهمهم لما يدعوهم اليه.

وقوم كل رسول انواع ثلاثة: عامة وخاصة، وخاصة الخاصة، فلو خاطب الرسول العامة بلسان الخاصة الذي هو غير لسانهم لافسدهم ونفرهم ، ولو خاطب الخاصة بلسان خاصة الخاصة الذي هو غير لسانهم لافسدهم وادخل عليهم ضررا عظيما وشرا كثيرا، اذ كل نوع لايفهم الا الخطاب الذي يكون بلسانه وهو استعداده ولا يفهم الا منه الفهم المقصود من الخطاب . ولا يرسل الله تعالى رسولا الا بالعلم والحكمة. فاذا رأيت من يدعي الامر الالهي بدعوة الناس الى الله وهو على غير ما ذكرناه فاعلم انه كاذب او ملبس عليه ، فان الحكيم العليم يزرع كل بزر في الارض القابلة لانباته فما كل ارض تقبل كل بذر .

وهل ينبت الخطي الا وشيجة وتغرس الا في منابتها النخل

ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انا معشر الانبياء امرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم) اي استعدادهم . وفي حديث آخر ، (ما كلم احد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم الا كان فتنة عليهم) وفي صحيح البخاري عن علي عليه السلام (حدثوا الناس بما يفهمون اتحبون ان يكذب الله رسوله) فلسان العامة الذي يرسل به الرسول اليهم فيكلمهم به فيفهون عنه هو الامر بالواجبات والنهي عن المحرمات وما هو من هذا القبيل مما تظهر الحكمة فيه لاكثر العقول العامية. ولسان الخاصة الذي يرسل به الرسول اليهم فيكلمهم به فيفهون عنه ، هوماتقدم مع الامر بتصفية الاعمال من الشوائب كالعجب والرياءوالسمعةواجتناب المهلكات كالحسد والبخل والجبن وطول الامل وحب الدنيا وتحلية القلب بالمنجيات كالصبر والرضى وتقصير الامل والسخاء ونحو ذلك . ولسان خاصة الخاصة الذي يرسل به الرسول اليهم فيكلمهم به ، هو ما تقدم مع كشف الحقائق الوجدانية لهم على حسب مراتبهم في الاستعداد فيبدي لهم من العلوم التي يجدها

اهل الله تعالى بالوحي الالهامي من فوق طور العقل ، اعني انه لايصل اليهاالعقل بفطرته وآلاته التي من عادته اقتناص العلوم بها ، وانما يدركها بالوهب المجرد عن الالات ، لانه لايدركها بوجه ولا حال ، فان المدرك لكل ما تطيقه القوة البشرية هو العقل ، لكن اما بآلاتفي مرتبته، وذلك للعقلاء: حكماء ،ومتكلمون، وفقهاء ، واما بالفيض والوهب في مرتبته وذلك للرسل والانبياء والاولياء ، فانهم لايأخذون علومهم من المحسوسات ولا من النظر والقياسات ، وانما هو منزل روحاني على قلب كياني .

وقوله تعالى : (ليبين لهم) اي ليظهر لهم ما هو مستجن في صورهم وكامن فيهم من الاستعداد ، وانه لايرقى احد فوق استعداده ، فمن كان استعداده في مرتبة العامة فقط ، فلا يمكن ان يرقى الى مرتبة الخاصة ، ومن كان استعداده في مرتبة الخاصة فقط فلا يمكن ان يرقى الى مرتبة خاصة الخاصة ، ولو استعان باهل السموات والارضين ، وان كان الانسان يظن انه مستعد لكل مرتبة من مراتب الكمال . ا هـ

يشبه هذا التقسيم بين الناس ماذكرهالامير ايضا في الموقف السابعوالسبعين قال : (الناس ثلاثة متسبب صرف نظره مقصور على السبب وقوته وضعفه فهو اعمى الايمان ، ومتوكل صرف معرض عن الاسباب ظاهرا وباطنا وهو صاحب حال لا يقتدى به ، ومتسبب بظاهره متوكل بباطنه ، يده في السبب وقلبه متعلق بخالق السبب ، وهذا هو الكامل الناظر بعينين . والشرائع كلها من لدن آدم الى محمد صلوات الله وسلامه عليهم انما جاءت باعتبار الاسباب العادية والشرعية ، اذ هي مقتضى الحكمة ومن اسمائه تعالى (الحكيم) ، وترك الاسباب مقتضى القدرة، ومن اسمائه تعالى (القادر) والوقوف مع احد الاسمين تعطيل للاخر ، والمعطل هالك والكمال في اعتبار الاسمين على وجه لايناقض التوحيد وافراد المولى انه الفعال لما يريد فيعتبر الاسم (الحكيم) بالتلبس ظاهرا بالاسبابالشرعية والعادية، ويعتبر الاسم (القادر) بالتعلق به باطنا والغيبة عن الاسباب بشهود مسببها ومجريها . ومن هنا ترى العارفين اهل الوجود والشهود يتلبسون بالاسباب العادية والشرعية كلها لافرق بينهم وبين عوام المؤمنين في ظاهر الامر وبادىء

الرأي ولكن في الباطن بينهم ما بين السماء والارض ، والمشرق والمغرب ، لان من كوشف بالفاعل الحقيقي الذي تصدر منه الافعال وعرف حقيقة المكلف والمكلف وحكمة التكليف ، والعلة الغائية منه ليس كالجاهل بذلك ، قال تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟) وقال تقدست اسماؤه (هل يستوى الاعمى والبصير ، ام هل تستوى الظلمات والنور ؟) • ا هـ

(١٤)

يقول الشاعر كاتبي النيسابوري ما ترجمته (انا كفريد الدين العطار من حديقة نيسابور ولكنه الورد وانا الشوك) • وهذا القول وان كان عن فريد الدين العطار وعن الشاعر كاتبي نفسه فهو ينطبق على التصوف في عمومه منذ بدعة وحدة الوجود • ذلك انه غدا بين ورود التصوف نوع من الشوك • وهذا الشوك هو الذي يشير اليه فريد الدين العطار بقوله : (ان الذي يعيب امثالي يقول انه ثرثار ، ولكن عندي معاني كثيرة فلا جرم اكثرت القول • فلا تسمع ان شئت) وهكذا فانا من الذين لايرمون بالورد لان فيه شوكا ، وابحث عن الحسن والجمال والحكمة حيثما كانت على اعتبار ان في التصوف من الحسن ما هو في الذروة العليا ومن الجمال ما هو في المرتبة القصوى ومن الحمكة ما جمع اسمى الشمائل • وفريد الدين العطار يقول في مقدمة (مختار نامه) (انه غسل منها الف بيت لانها ليست من هذا العالم) ولكنه في كتاب (يسر نامه) يقول (اقول لك سر الاسرار الخفية ؟ اعلم يا اخي ان النقش هو النقاش) وعن قوله هذا اقول ليته غسله من بين اشعاره وليت كثيرا من المتصوفة غسلوا امثالها من اشعارهم واقوالهم التي يكفي في الرد عليها اي على وحدة الوجود وما لحقها من ذيول ، قول معقل العجلي :

اذا لم اميز بين نور وظلمة — بعيني فالعينان زور وباطل

ويرد عليها قول محمد بن ابي مرة المكي :

اذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى — فما الفرق بين العمي والبصراء

واوضح من هذين الردين ما جاء بالذكر الحكيم منكرا زعم الذين كفروا قال سبحانه في سورة الزخرف (وجعلوا له من عباده جزءا ، ان الانسان لكفور مبين) بعد تعديده جل ثناؤه ما انعم به على خلقه من ارسال الانبياء رحمة منه ، وانه جل جلاله هو خالق السموات والارض ، وهو الذي ينزل الغيث ، وينبت الثمرات ، وهو الذي خلق الازواج كلها اي ما في الكون من انواع وتنوع ، وهو الذي سخر الانعام ، وان الخلق من بعد ذلك لالى ربهم منقلبون •

ولكني في التصوف ، كما ينبغي ان يكون عليه الانسان في كل امر ، فانا على الحكمة التي يقولها المتنبي :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به　　　في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

ولذلك فان ما اقدمه من مختارات من كتاب المواقف جعلته مقتصرا على ما يهتم به ويتقصى فيه النصح وتكتسب منه الحكمة ، على اعتبار ان التصوف كما قال الجنيد : اخلاق وكل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه • ولان النبي الكريم جعل جوهر الشريعة بالاخلاق قال (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) واصول الاخلاق سلامة الصدر واجتناب الاثام وارادة الخير لكل مخلوق والنصح للامة • على ان ذلك لايمنع من ان نقول رأينا في موضوع يتشوق الى معرفة شيء عنه وهو (وحدة الوجود) •

(١٥)

ان فكرة وحدة الوجود نظرية فلسفية وليس لها علاقة بعقيدة التوحيد • لان التوحيد ضد الشرك اما وحدة الوجود فليست ضد الشرك بل ضد الكثرة • وهي مسألة من ناحية ثانية لا علاقة لها بالدين وكل ما فيها انها تدل على الوحدة في نظام العالم وانسجام نواميسه • والحياة مهما يكن فيها ما يوحدها ويجعلها في وجود واحد فان فيها من الاسرار ما لايصل اليه العقل ليجعلها كلها خاضعة لفكرة واحدة ••• ان الانسان اعجز من ان يجمع العالم الغامض وخفاياه المجهولة في نظرية واحدة تعتبر وحدها انها النهائية •

على ان من المتصوفه من جعل (وحدة الوجود) جزءاً من العقيدة ، قالوا : ان الوجود الحق للواجب في ذاته ، ولا موجود الا الوجود الواحد ، فالعالم لايقدرون ان يخرجوا عن الحق ، فهو وجودهم ، ومنه استفادوا الوجود ،الذي فيه بطن كل شيء بطون النصفية والثلثية والربعية في الواحد ، ومثاله ايضاً الانسان فان تعدد ذلك لا يوجب تعدداً في حقيقة الانسان .

ومهما كان الشكل الذي نسبت فيه نظرية وحدة الوجود الى الشيخ محي الدين فانا نسجل انه قال في الباب السابع والخمسين وخمسمائة من الفتوحات المكية بعد كلام طويل ما نصه (وهذا يدلك صريحاً على ان العالم ما عو عين الحق تعالى ؛ اذ لو كان عين الحق تعالى ما صح كون الحق تعالى بديعاً) .

وانه قال في فصوص الحكم (اجتمعت بهرون عليه السلام وقلت له يا هارون ان ناسا من العارفين زعموا ان الوجود ينعدم في حقهم فلا يرون الا الله ولا يبقى للعالم عندهم ما يلتفتون به اليه ولاشك انهم في المرتبة دون امثالكم واخبرنا الحق انك قلت لاخيك وقت غضبه فلا تشمت بي الاعداء وجعلت لهم قدرا وهذا حال يخالف حال اولئك العارفين. فقال صدقوا ما زادوا على ماعطاهم ذوقهم ولكن انظر هل زال من العالم ما زال عندهم ؟ قلت : لا ، قال : نقصهم من العلم بما هو الامر عليه قدر ما فاتهم ، فنقصهم من الحق تعالى على قدر ما انحجب عنهم من العالم) .

والذي يبدو لي ان بالغ ما وصل اليه في فكرة وحدة الوجود لدى اكابر المتصوفة ما ذكره الامير في الموقف ٢٥٠ قال (لا مظهر لله تعالى يظهر به الا نحن معاشر الممكنات لانه انما يظهر باسمائه ونحن آثار اسمائه فانه لاظهور لنا الا به فبه عرفنا انفسنا لانه اصل وجودنا ولولا خلعة الوجود التي خلعها علينا بماذا كنا نعرفه؟ فما عرفناه الا به . كما ورد في بعض الاخبار النبوية (عرفت ربي بربي) وبمعرفتنا نفوسنا عرفناه ، فانها مقدمة معرفة الرب ، ومعرفة الرب نتيجتها ، وما عرفنا انفسنا الا به ، فانظر ما اعجب هذا الامر ، وبنا تحقق ما يستحقه الاله من المعبودية فان معبودا بغير عابد وجودا او تقديرا غير معقول ، وملك من غير مملكة لا يكون) .

اقول وفي هذا الذي ذكرناه الدليل على ان المتصوفة يتفقون مع علماء التوحيد بان هنالك مغايرة تامة بين الخالق السرمدي الابدي الخالد جل جلاله، وبين المخلوق المحدث الذي يعتريه الموت والفناء •

فالفناء الاختياري اذا اراد به السالك معنى الموت قبل الموت كما يقول النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم (موتوا قبل ان تموتوا) من اجل التوبة ومحاسبة النفس وتصور يوم القيامة ، وترك ما يأفل على ما علم به ابو الانبياء سيدنا ابراهيم ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ اذ ترك الآفلين فلم تحرقه النار ـ فذلك كله مما يحث عليه الاسلام • اما فهم الفناء بمعنى ان يعتبر الانسان نفسه انه في وحدة من الوجود فهو قطرة من البحر يزعم ردها ليفني وجوده في الوجود المطلق اي بالله ـ فهذا ما لا نسلم بان الاسلام الذي يقول (واسعوا ، واعدوا ، وجاهدوا ، المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، الله خالق كل شيء) يرضى به •

ويبدو لي ان المسلمين لما ضعفوا عن حمل الامانة التي فرض عليهم حملها شرعهم وامسوا عاجزين عن اخذ الكتاب بقوة ، وضعفوا عن استطاعتهم تبديل ما في نفوسهم ليرفعوا من روحهم على ما يلائم القوة التي اوجدها النبي الكريم في صحبه : ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وامثالهم ، اخذوا ما قدمته اليهم الاقوام المغلوبة على امرها •

وكم رزىء المسلمون من مخادعين ، واصيبوا منهم بمصائب فادحة ،حاولوا اطفاءاً لمشكاة نورهم ودرسا لاعلام هداهم •••

وبدلا من ان يبقى المسلمون على عقيدة ان لاحق ولا خير ولا مجد ما لم يحم ذلك القوة ، وان الجنة تحت ظلال السيوف ، لأن من صميم الحقائق التاريخية في القديم والحديث انه (ويل للمغلوب) ، وان الضعيف يعجز عن نشر الحق ، وان في الاستكانة الذل والشقاء ، انقلبوا بما غرر اليهم بتأويلات جعلت مكان النسر بغاثا ومكان الضغيم شاة، بحيث اصبح فيهم من يعد اليدالسفلى انها اليد العليا ، والتوكل هو التكلان ، مع ان التوكل الاستمداد من الخالق عند مباشرة العمل والتكلان اهمال كل سبب •••

وهكذا سبب ، لنفر من المسلمين ، تخليهم عن عقيدتهم الواضحة في كتابهم المنزل وفي سيرة نبيهم المرسل ، وانخداعهم بما غرروا به من آراء غريبة عن دينهم لم يقل بها امام من أئمتهم، ان امسى ملايين من المسلمين اياديهم مشلولة ،واراؤهم مأفونة ، وحدائقهم لا ينبت فيها الا الشوك .

لاتكتب الحياة الا للامم التي يكون لها رسالة مثالية تتفجر بها العزائم وترزقها ارادة لا تثني فهي تريد ،وتعرف ما تريد ، وتكون على بينة من مسالك الطريق .

وان في عقيدة وحدة الوجود وفي المباحث التي لاتخرج عن ميدان النضال الكلامي والالفاظ التي يسبغ عليها طلاء من النور فيه ما يزيد من التراث القولي وما يتفاخر به من افكار الا ان فيها ايضا ما يطعن اصل العقيدة حتى يميت من النفوس كل أمل سوى روح التماوت وامل الموت .

والويل كل الويل للحي الذي — في نفسه قد ماتت الآمال

والاسلام في اساسه وعي وبناء لا وهم وهدم ، وليس للانسان في نظرة الاسلام ادراك وحسب بل له ايضا ارادة ونشاط عقلي ووجدان يزداد استنارة بما يراه من جلال الحياة وعظمة ما في العالم من نظام وادراك ما بالعقل من قانون خلقي ومقدرة تربط الجزء بالكل والمحدود بالطلق والشعور بالهندسة غير المنظورة التي تربط كل شيء بكل شيء والتسامي بالروح في اقترابها من الخالق سبحانه على ما يوضحه الشيخ ارسلان شيخ الشام عليه رحمة الله ورضوانه قال: (اذا استأنست به استوحشت عنك ... فالوجود مما يرغب فيه او يخشى منه ماله وجود ، كلما اجتنبت هواك قوى ايمانك وكلما اجتنبت ذاتك قوى توحيدك ... ما صلحت لنا وفيك بقية لسوانا) .

قال تعالى (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنيفا) اي عن انكار ذات وبمحاسبة النفس (ويقيموا الصلاة) شكرا على النعم وعن رجاء ومحبة من اعماق الشعور (ويؤتوا الزكاة) وكل ما يكون معه العون لمحتاجه لتنجو النفوس من نتن الشح (وذلك دين القيمة) لانه دين الاخلاص ، دين

محاسبة النفس ، بل هو الدين الذي يصنع فاعلي الخير والعاملين على زيادته ، ويصدرون في سلوكهم بدافع التفاؤل لتصبح الحياة على افضل ما يحلم به البشر.

اما الانطلاق للحياة على عقيدة وحدة الوجود وفهم الفناء على معنى التماوت فالاسلام الذي في مقدمة مبادئه (وان ليس للانسان الا ما سعى، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى) فهو يرفض ذلك كل الرفض بل الاسلام لا يرى في التقشف الذي يأمر به، العزوف عن طيبات الدنيا، وانما يرى فيه اجتناب التهالك على الرفاهية وما تصحبه من تدهور خلقي .

وهنا نقطة انبه اليها هو ان الايمان مهما كان من شأنه الدعوة لحماية الحق بالقوة، وان من الواجب الاستعداد لمنازلة الشر ودفعه وعدم الاستسلام اليه ، فان ذلك الايمان يصبح هزيلا اذا ما وجدت الى جانبه افكار مخدرة او تفتر معها العزائم ، وان الذين دخلوا في الاسلام عن مكر ووضعوا مئات الاحاديث برعوا بتأويل النصوص ، وان كل ذلك اريد به اضعاف سلطان الايمان وان يخفف من اهميته بل يجعله على الصورة التي تقتل معها المواهب والانطلاق في ميادين الحياة ببسالة وبأس ، بحيث لا يبقى في الاسلام شيء يكون فيه مبعث قوة.وان في عقيدة وحدة الوجود ما فيه ذلك الذي يشل العزائم وما يستسيغ التماوت .

الا تبا للذين يريدون ان يكون مكان الحياة موتا ومكان الحقائق اوهاما ، ويريدون من الايدي ان لا تمد الى الهدى وغنى القلب بل الى الهوان والفراغ .

ولذلك فان من واجب الدعاة الى الله ، عصمني تقدست اسماؤه واياهم من الزيف واعاننا على الرشد ، تقوية الروح والدفاع عن كل ما يوهن العزائم وينشروا المعاني التي هي من جوهر الدين ، بان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

(١٦)

ان من ينسب فكرة وحدة الوجود وفكرة التصوف بمعنى التكلان للامير عبد القادر لاشك انه لم يمعن في دراسته للمواقف واقل ما في الامر انه لم يقرأ الموقف ٣٢٤ الذي يقول فيه :

قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا من يرتد عنكم عن الدين فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ، ما قاله المفسرون في الآية بحاله . والذي اعطاه الاعتبار والالقاء الالهي هو ان الآية من الآيات المخبرة بالمغيبات الآتية ، اخبر تعالى ان المؤمنين يرتدون عن الجهاد وسماه دينا هنا ، وانهم ينكصون عنه ويتثاقلون وتظهر فيهم علامة من علامات النفاق وهو قوله (لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون) واخبر انه بعد ذلك بتسويف يأتي بقوم صفتهم ماذكر في الاية يلقي الله في قلوبهم الصدق والنيات كما فعل ذلك تعالى بالصحابه رضوان الله عليهم وعلى ايديهم يظهر الاسلام ويحي الايمان ويتنفس المسلمون ومعهم تكون الملاحم العظيمة كالملحمة التي ذكرها مسلم في صحيحه . والمؤمنون المؤيد بهم في الآية هم مؤمنون حقيقة فانه تعالى قال لمن لم يكن دعواه الايمان حقا (لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) . فالارتداد في الآية انما هو عن أمر واحد من امور الدين وهو التقاعد عن الجهاد والنكوص عنه وسمي تعالى الجهاد دينا تفخيما لشأنه كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ الدين النصيحة ، كما سمي تعالى الصلاة ايمانا في قوله (وما كان الله ليضيع ايمانكم) اي صلاتكم الى بيت المقدس فكأنه تعالى قال في هذه الآية الدين الجهاد وان كان للدين اركان غير الجهاد كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ (الحج عرفه) وان كان للحج اركان غير عرفه؟ فمن اراد ان يعرف مقام الجهاد ومرتبته في هذا الدين المحمدي فلينظر في هذه الآية ويعتبر ، ومنها يعرف تشديد الوعيد في التقاعد عن الجهاد والنكوص عنه حيث اطلق على ذلك لفظ الردة عن الدين وفي الآية الثناء الجميل والوعد الذي هو بكل فضل كفيل ، على القائمين بأمر الجهاد حيث قال (يحبهم ويحبونه) .

اكرر القول ان من ينسب فكرة وحدة الوجود وفكرة التصوف بمعنى التكلان للأمير لاشك انه لم يمعن فيما قاله في الموقف ٣٢٤ الذي ذكرناه ولا قرأ ما ذكره الامير في الموقف ٢٧٨ وفيه يقول (روى مسلم عن رافع بن خديج قال قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وهم يؤبرون النخل قال

ما تصنعون قالوا كنا نصنعه قال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوا فنقصت الثمرة فقال صلى الله عليه وسلم ، انما انا بشر اذا امرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا امرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشر ، ما قلت لكم قال الله فلست اكذب على الله) لايفهم منه انه صلى الله عليه وسلم كان جاهلا بان النخل يصلحه التأبير عادة اجراها الله تعالى حكمة وفضلا ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ في بلادالعرب وهي ارض النخيل ومحل علم زراعته وتثميره ؛ كما لايفهم من ذلك ترك الأسباب لأنه صلى الله عليه وسلم اطب طبيب واحسن مؤدب واشفق مربي ، ولكن الفرصة سنحت ليعلم بطريقة عملية ما ينبغي من الجمع بين العلم بحكم الاسباب وان الله هو « الحكيم » وبين العلم بتجريد التوحيد وانه هو (القادر) ، وان ما هو متناول الحكمة انما مداره الخبرة • ذلك لأنه يستحيل في حق الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الامر بترك الاسباب الضرورية جملة واحدة فانهم ارسلوا لعمارة الدارين ، وترك الاسباب رأسا تخريب للدار الدنيا فان مبناها على الحكمة الالهية ، كما ان الاخرة مبناها على القدرة المحضة ، والرسل عليهم الصلاة والسلام اعلم الخلق بالله تعالى وبحكمته في مخلوقاته وبحقائق الاشياء التي لاغنى للخلق عنها في معاشهم ومعادهم • وما ظهرت المعجزة من نبي ولا الكرامة من ولي ، ولا شيء من الاشياء الا بحركة محسوسة او معنوية اقلها حركة اللسان او جمع الهمة وذلك لأثبات الاسباب التي وضعها الله في العالم ليعلم ان الامر الالهي لايتخرم وان الاسباب لاترتفع ابدا ؛ وكل من زعم انه رفع سببا بغير سبب فما عنده علم لا بما رفع به ولا بما رفع • فالقائل برفع الاسباب العادية التي اجراها الحق تعالى في العالم وان كان مراده تجريد التوحيد واطلاق الاقتدار الالهي فقد اساء الادب وما اعطي الحكمة الالهية حقها • فهو تعالى قادر ان يخرج من الحجر ثمرا ولكن بعد ان يجعل الحجر شجرا ، سنة الله التي قد خلت ولن تجد لسنة الله تبديلا • كيف واستعمال الاسباب طريقة اكمل الخلق واعلمهم بالله تعالى وهم الانبياء والكمل من ورثتهم صلوات الله وسلامة عليهم • وقد ثبت انه صلى الله عليه ظاهر بين درعين وحفر الخندق وجند الاجناد واعطى عياله قوت سنتهم وتداوى واحتجم وقال الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء) •

وقال الامير في الموقف ٢٧٩ (قال تعالى :وابتغوا ما كتب الله لكم) ان الامر بالطلب عام ٠٠٠ولا يصل الينا ما كتب لنا الا بسببه الذي جعله الحق سببالوصوله الينا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وحكمته ٠٠٠ ولولا مراعاة حكمةالاسباب وملاحظتها ما ارسل رسولا ولا نزلت شريعة ولا كان امر ولا نهي من الله تعالى ورسله عليهم السلام) ٠

وقال في الموقف ٢٥١ (فاثبت الاسباب يا اخي حيث اثبتها الحق تعالى امتثالا للامر واتباعا للحكمة ، ولا تعتمد عليها من حيث انها اغيار للحق تعالى ، وشاهد وجه الحق فيها ؛ فلابد من الاسباب وجودا والغيبة عنها شهودا) ٠

(١٧)

هذا وان الامير عبد القادر عليه رحمة الله قال في الموقف ٣٦٢ اذا ظهر في مسألة ما حكم من احكام التوحيد مما يزيل حكم الشرع كمن ينسب الافعال كلها الى الله تعالى من جميع الوجوه فلا يبالي فيما ظهر من موافقته او مخالفته فمثل هذا التوحيد يجب الاعراض والتنزيه عنه فانه خرق للشريعة ورفع لاحكام الله ؛ واياك والاعتداد بقول القائل ، وان تداولته الالسن وجرى مجرى المثل السائر : (من كان يعلم ان كل مشاهد فعل الاله فماله ان يغضب) فان هذا القول جار على ما عليه اهل وحدة الشهود فهم يقولون (على من نغضب؟ وموجب الغضب هو الفعل ، ولا فاعل الا الله) وذلك انهم غلب عليهم ادراك الحق في كل حقيقة من الحقائق على وجه غلب عليهم فيه الحق سبحانه على امره فلم يدركوا نفوسهم وذهلوا عن العالم حالا فاذا سئلوا عن الكثرة المشهودة والتعددات المدركة لم يستطيعوا جوابا فلو قيل لاحدهم في مسئلة لقال (هو) فاذا قيل له من السائل لقال (هو) واذا قيل له من المسؤول لقال (هو) وهذه حالة مذموم الوقوف فيها تعرض لبعض السالكين ، وقد حذر منها المشايخ العارفون فانها مدحضة ومزلة اقدام السالكين وهي سلم الزندقة ومدرجة الاباحة ومفتاح ابواب الوساوس الشيطانية فلا يصح هذا التوحيد من عاقل مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وكيف يكون عارف من كان في كمال عقله ويعطل الالوهية واسماء الله تعالى فانه

تعالى مسمى باسماء اللطف والقهر والرضاء والغضب، والالوهية تطلب الغير بذاتها على وجه لا يناقض التوحيد المشروع • والفناء انما هو حكم لا عين ، فان العالم باق على حاله ما فنى) وقال في الموقف ٢٥٠ (انه تعالى مباين لخلقه منفصل عنهم بالذات والصفات والاحكام والافعال) •

وقال في الموقف ٣٥٨ (اعلم ان الانسان لا يخلو ان يكون واحدا من ثلاثة بالنظر الى حكم الشرع اما ان يكون ظاهرياً محضاً متغلغلا بحيث يؤديه ذلك الى التجسيم والتشبيه فهذا مذموم ومذهب باطل ، واما ان يكون جاريا مع حكم الشريعة على فهم اللسان الذي جاءت الشريعة به حيث ما مشى الشارع مشى وحيث ما وقف وقف قدما بقدم فهذا هو الحق المحمود الوسط ، واما ان يكون باطنيا محضا معتقدا مشرب الباطنية من غير نظر الى الشرع وهو القائل بتجريد التوحيد حالا وفعلا وهذا يؤدي الى تعطيل احكام الشرائع وقلب اعيانها وابطال الديانات والغاء المعاملات الدنيوية الجارية بين المسلمين بحكم الشرع الحق كما هو مذهب الزنادقة الملحدين الاباحيين الاتحاديين فانهم يقولون بالتوحيد المحض الذي هو مقام الجمع فينفون الشريعة التي هي مقام الفرق فهم كفرة واضر على المسلمين من الشياطين المردة بانكارهم احكام الله ، وما كفاهم حتى ادعوا مقام الربوبية والتجسيم بقولهم انهم الله ، ويقولون سقط عنا التكليف لاننا وصلنا الى ان صارت ذواتنا هي الله وقولهم كل شيء نراه هو الله • وليس والله هذا مذهب اهل الله• وانما اهل الله اذا انزلهم الله في مقام التوحيد المحض كملهم بالاعمال الصالحة واوقفهم عند حدود الشريعة ، واذا انزلهم في مقام الفرق حفظهم من الشرك واشهدهم قيام العالم بوجود الحق • الله الله الله يا اخواني لا يظهر احد منكم بالتوحيد المحض يوما ما ولا في حال ما ، فالتوحيد المحض يكون عليه باطن الانسان وعقده واما اظاهره فلابد فيه من الفرق : رب وعبد ، آمر ومأمور • فان اظهار التوحيد المحض للعوام فتنة واي فتنة وضلال واي ضلال وبعض الملاحدة يقول (الحركة والسكون بيد الله فما جعل في نفسي اداء ما امرني به ، فهو الآمر المأمور المتكلم السامع) وهذا لا يصدر عن احد علم بالله على ما ينص عليه كتاب الله وما نقل عن رسوله ، وانما يصدر ممن اخذ العلم من كتب القوم رضي

الله عنهم بدون مرشد كامل ، كما ضل هؤلاء الزنادقة الذين هم في زماننا بكتب الامام العارف بالله عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه فنظروا بالكتب بلا تقييد بالتقوى ومراعاة احكام الشريعة فضلوا واضلوا . ولهذه العلة منع اهل الله بعض تلامذته عن مطالعة كتب الحقائق لاشرافه على قصور ذلك المريد عن فهم ما وضع في كتب الحقائق لان قاصر الفهم لا يخلو اما ان يتأول كلامهم على خلاف ما ارادوه فيهلك في الهالكين او يضيع العمر في النظر في الكتب من غير فائدة) .

وقال في الموقف ٣٥٩ : قال تعالى (ما قدروا الله حق قدره) اي ما عظموه حق تعظيمه كما تستحقه ذاته وينبغي لجلاله وما يكون لهم ذلك وليس في وسع الممكن حصول ذلك ولا يقتضيه استعداده وانى للمقيد بمعرفته المطلق عن الاضافة والتقييد ؟! فالكل في حجاب ولو بلغ ما بلغ ، فالمنزه الصرف في حجاب ، والمشبه الصرف في حجاب ، والجامع بينهما في حجاب ، كما ان من اطلقه في حجاب ، ومن قيده في حجاب ، ومن نفاهما في حجاب ، وكل حاكم عليه بحكم فهو في حجاب بحسب مرتبته ومنزلته عند الله تعالى ، والحجب مختلفة باختلاف المحجوبين ، لايقال (وهذا الذي قلته حكم ايضا) ، لانه سبحانه هو الذي قال هذا عن نفسه في قوله (ولا يحيطون به علما) فالعالم كلهم حمقى في ذات الله وان الملأ الاعلى ليطلبونه ، وكل طالب فاقد لما يطلبه من وجه طلبه ، فالطلب من الطالبين لايتناهى والعلم بالله لايتناهى ، ولا يعلم تعالى ، وانما يعلم ما منه من حيث آثار اسمائه لا هو تعالى . ولهذا قيل لمن اعطي علم الاولين والاخرين (قل رب زدني علما) فهو يقول ذلك في كل حال ومقام ومرتبة دنيا وبرزخا وآخرة لا الى نهاية او غاية . وحيث كان هذا فاللازم علينا لزوم طريقة الايمان والعمل بما فرض علينا ومتابعة الشارع فما قال قلنا متابعة وترجمة اذ هو القائل ، وما سكت عنه سكتنا مع اقامة الشرائع واجراء الحدود وانتظار الموت والسلام .)

(١٨)

واما بعد فاذا كان الامير.عبد القادر عليه رحمة الله قال في الموقف (٢٥٠) (اهل الطريق متفاوتون فيما يهبهم الحق تعالى من العلوم تفاوتا لاينحصر اكثر من تفاوت علماء الرسوم) فان من حق السامع ان يسأل عن الميزة التي خص الله بها الامير في مباحثه الصوفية •

وجوابا عن ذلك اقول ان الامير عليه رحمة الله بحث في كتابه عن امور هي التي اخترت منها مايزيد كشفا عن شخصيته ويعرف باتجاهاته وافكاره • ثم بما يوقد في القلب جذوة الايمان وما يكون به زاوية للبناء ، وان وراء مظالم هذا العالم ووراء المادة ووراء غيوم النهار ووراء ظلمات الليل ، وراء كل شيء ، هنالك ما تصفو به النفوس وما هو اغنية الوجود ، وان الى جانب ما يكتب بالحبر وما يكتب بالدم هنالك ما يكتب بالنور•

وفيما يلي ادرج عشرة نماذج من كتاب المواقف فيها ما تنجلي معه تلك الاغراض التي نجد لدى التمعن فيها البرهان الذي لايرد على ان للاسلام مفاهيم صوفية خاصة نابعة من نصوص الاسلام وحدها دون سواها ، وان تلك المفاهيم، على حقيقتها ، انما هي للانطلاق من حدود الذاتية الضيقة ، بما في ذلك العنصرية والقومية والطبقية وجميع ما يفرق بين الناس ، وانها للانسان وللانسانية بمنزلة النور الذي يطرد الظلام حيث يكون الظلام ، وتعمل لتلتقي مع كل نقاء نفس وطهارة ضمير ، كما فيها ما يغني الروح في افقها الذي لايحد بما تحلو معه الحياة ، وما تزول معه وساوس تعتلج في الصدر من شكوك •

* * *

ـ الانموذج الاول ـ

وفيه العقيدة عن وحدة الاديان وان كلا يقوم بواجب الشكر والتمجيد للخالق الحق

قال في الموقف ٢٥٤ : قال تعالى (والهكم اله واحد لا اله الا هو) وقال سبحانه (قل انما انا بشر مثلكم يوحي الي انما الهكم اله واحد) وقال عز وجل (انه انا الله لا اله الا انا) ونحو هذه من الايات خاطب بها تعالى كل من بلغه القرآن الكريم والكلام القديم من يهودي ونصراني ومجوسي ووثني وصنمي ومانوي وغيرهم من الاجناس والاصناف المختلفي العقائـد والمقـالات في الحق تعالى ، اخبرهم ان الههم واحد وان اختلفت مذاهبهم وعقائدهم فيه ، فهو واحد العين ، ولا يلزم من اختلافهم فيه اختلاف في عينه وحقيقته فانها كالاسماء له،ولا يلزم من تعدد الاسماء تعدد في المسمى ، وان له تعالى اسماء في كل لغة من اللغات التي لاتحصى كثرة ، وليس ذلك بقادح في وحدة عينه ، ففي الآيات المتقدمة اشارة الى ما تقوله الطائفة العلية طائفة الصوفية بانه تعالى عين كل معبود ، وان كل عابد انما عبد الحق من وجه ببرهان هذه الآيات وبقوله عز وجل (وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه) فحكم تعالى ان لا يعبد عابد الا اياه ، فمحال ان يعبد غيره لان وقوع خلاف قضائه محال ، وانما هلك من هلك من جهة مخالفته لما جاءت به رسل الله من اوامر الله ونواهيه من حقوق وواجبات على الانسان اداؤها بالعدل نحو نفسه ونحو كل مخلوق ، فهو تعالى الاول والآخر والظاهر والباطن، فلا تقيده المظاهر ولا تحصره المقالات والاعتقادات من الاوائل والاواخر ، فهو كما اخبر في الصحيح عند ظن كل معتقد ولسان كل قائل والله واسع عليم ، وسع اعتقادات جميع مخلوقاته كما وسعتهم رحمته ، وسع كل شيء رحمة وعلما ، عزيز منيع ان يعرفه احد من مخلوقاته كما يعرف نفسه ، او يعبده عابد كما تستحق عظمته وجلاله ، لطيف ظهر بما به بطن ، وبطن بما به ظهر ، لا اله الا هو) .

وقال في الموقف ٢٥٧ : قال تعالى (وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) اقول من باب الاشارة لا من باب التفسير التوبة الرجوع مطلقا وخصها الشارع بالرجوع من الكفر الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة ومن حالة ناقصة الى حالة كاملة ومن حال شريف الى حال اشرف ٠وامر التوبةعظيم وشرفها جسيم ومقامها مقام كريم ولهذا امتن الله بها واطلقها على اشرف مخلوقاته وهم الانبياء والمرسلون ـ صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ـ والمؤمنون المؤية بهم المأمورون بالتوبة هم اليهود والنصارى والمشركون والمجوس والمحمديون فهو يدعو جميع العباد الى سعادتهم ويخص من يشاء بالتوفيق كما قال (والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم) فانهم كلهم يطلق عليهم اسم المؤمن ، قال تعالى مخاطبا اليهود والنصارى (يا ايها الذين آمنوا آمنوا) اي يا ايها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ، فان قلت فلم ذكر الكتاب الذي انزل من قبل يعني التوراة وامرهم بالايمان بها لو كان الامر كما ذكرت قلت لكون التوراة فيها الاخبار بمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته وذكر بعض صفاته وشمائله وصفات امته ٠)

أقول وهذه العقيدة عن وحدة الاديان هي التي قال الشيخ محي الدين العربي فيها :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي	**اذا لم يكن ديني الى دينه داني**
وقد صار قلبي قابلا كل صورة	**فمرعى لغزلان ودير لرهبان**
وبيت لاوثان وكعبة طائف	**والواح توراة ومصحف قرآن**
ادين بدين الحب انى توجهت	**ركائبه فالحب ديني وايماني**

* * *

ـ الانموذج الثاني ـ

وفيه المعنى عن رحمة الله الواسعة ينالها كل من فضله واحسانه

قال في الموقف ٢٥٠ (قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) ٠ فرض تعالى على نفسه الرحمة لقوم خواص نعتهم بعمل خاص فادخل تعالى الرحمة الواسعة المطلقة تحت التقييد اي تقييدها وحصرها فيمن هذه صفاتهم من اجل الوجوب الذي اوجبه عليهم ، على ان سبحانه ما اوجب على نفسه الا لنفسه وهذا لايدخل تحت حد الواجب فان الواجب ما يستحق فاعله المدح وتاركه الذم ، وهو تعالى ما اوجب ما اوجب من الرحمة الا على نفسه لنفسه ٠ قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه : لقيت ابليس فعرفته وعرف مني اني عرفته فوقعت بيننا مناظرة فكان من آخر ما قال لي (يا سهل ان الله عز وجل يقول (ورحمتي وسعت كل شيء) فعمم ولا يخفى عليك اني شيء بلا شك لان لفظة كل تقتضي الاحاطة والعموم ، وشيء انكر النكرات فقد وسعتني رحمته) قال سهل (فوالله لقد اخرسني وحيرني بلطافة سياقه وظفره بمثل هذه الآية وفهمه منها ما لم نفهم وعلمه منها ومن دلالتها مالا نعلم فبقيت حائرا متفكرا واخذت اتلو الآية في نفسي فلما جئت الى قوله تعالى (فساكتبها) الآية سررت وتخيلت اني قد ظفرت بحجة وظهرت عليه بما يقصم ظهره ، وقلت له (ان الله قد قيدها بنعوت مخصوصة تخرجها عن ذلك العموم ، فقال (فساكتبها) فتبسم ابليس وقال (ياسهل ، ما كنت اظن ان يبلغ بك الجهل هذا المبلغ ، الست تعلم يا سهل ان التقييد صفتك لا صفته؟) قال سهل فرجعت الى نفسي وغصصت بريقي واقام الماء في حلقي ووالله ما وجدت جوابا ولا سددت في وجهه بابا ، وعلمت انه طمع في مطمع ٠

ان الحق تعالى له الاطلاق الذاتي وما بالذات لايزول الا بزوال الذات ،

والتقييد انما عرض للحق تعالى من عروض نسبة العالم اليه تعالى ، فلو فرض ارتفاع العالم ما كانت للحق تعالى مرتبة التقييد ، فمرتبة الاطلاق اصل ذاتي له تعالى ، وللمطلق ان يقيد نفسه اذا شاء مع اطلاقه في تقييده اذ كل ما يصح اطلاقه على الحق فلا يكون له ضده ، فلم ينحجب ابليس بتقييد وجوب الرحمة بالتقوى وما عطف عليها ولا بالجهالة ولا بكل تقييد ، فهو ينتظر الرحمة ويرجوها من عين المنة والجود المطلق) .

اقول من هذه الزاوية اي من زاوية الرحمة انها قد تشمل ابليس وهو الذي يقطع صلات الارحام ، ويمزق اواصر القربى ، ويكون عوناً لكل شر ، وممهداً لكل اجرام ، وشريكاً في كل معصية ـ يجب الاخذ بالاشارة الواردة هنا وعلى مقتضى مفهوم الاولى ، وهي انه على كل فرد ، الا ينظر في ذنوب الناس كأنه رب ، لان الجهالة تجوز من كل انسان ؛ وانما الناس مبتلى ومعافى فيرحم اهل البلاء ويحمد الله على العافية . وان من واجب المؤمن اكرام جميع خلق الله ، فيأمر بالمعروف وينهي عن المنكر رحمة لهم لا تعزيراً عليهم ؛ يجعل عوض احتقاره لهم الرحمة بهم ، وعوض دعائه عليهم دعاءه لهم ؛ يقتدي بمافعله العارف بالله معروف الكرخي عندما عبر هو اصحابه على دجله فرأى اصحابه سارية فيها لهو ، فقالوا : يا استاذ ! ادع الله عليهم . فرفع يديه ، وقال : اللهم كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة . فقالوا له : يا استاذ ، انما قلنا لك ادع عليهم ! قال : اذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، ولا يضركم من ذلك شيء . فلما وصلت السارية الى البر خرجوا الى الله تائبين .

واما بعد ، فاذا قال قائل (ان الوطن بحاجة في اقامة دعائمه على سواعد ابنائه المخلصين) يجب ان نعلم ان في طليعة الاخلاص ان تكون الرحمة بين احادهم ، والصلة بين الحكومة والشعب ، ان تكون قائمة على اكثر من التناصح ، وعلى اكثر من اقامة العدل ... على الرحمة والرفق . والمسلمون ما وصلوا الى ما وصلوا اليه من سؤدد في عصورهم الاولى ، وما تغلبوا على الشدائد ، وتبؤوا

اسعد منزلة ، الا عندما كانت الرحمة تخفق مع الخافق في الصدر وتترجم عنها الافعال . قال نبي الرحمة (والله تعالى في عون العبد مادام العبد في عون اخيه) يكف عنه الأذى عن رحمة ، ويكون له منه الساعد الأسد .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (بيننا رجل يمشي في الطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل بها ، فشرب ، ثم خرج ، فاذا كلب يهلث وهو يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ، ثم امسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى ، فغفر له) . قالوا يا رسول الله ! ان لنا في البهائم لأجر !؟ قال (في كل ذات كبد رطبة اجر) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لايدخل الجنة الا رحيم) قالوا : يارسول الله كلنا رحيم ، قال (ليس رحمة احدكم نفسه خاصة ، ولكن حتى يرحم الناس عامة) .

* * *

ـ الانموذج الثالث ـ

وفيه وجوب الهيمنة على كل جارحة وان يكون الانسان ذا سلطان على نفسه

قال في الموقف (٢٨٩) الوصل ١٢ (ان الله سبحانه خلق لكل انسان ذاتية انسانية اي نفسا ناطقة مفكرة مدبرة عاقلة مستعدة لقبول جميع ما كلفها به وهي محل خطابه المقصود بتكليفه وامتثال اوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده ومراسمه ... ومن ثم يطلبه كل ذي حق بحقه عليه حتى جوارحه تطالبها بحقوقها منه فيطلبه السمع الذي خلقه الله فيه بحقه ومن حقه ان لايمنعه من استماع ما ابيح له وان يتعاهده بما يدفع عنه الاذى ويبقى عليه صحته ومن حق الله فيه ان لايسمع به صوتا محرما ولا كلاما محرما عليه الاصغاء اليه ، ويطلبه البصر الذي خلقه فيه بحقه ومن حقه ان لايمنعه مما ابيح له النظر اليه وان يتعاهده بما يدفع عنه الاذى ومن حق الله فيه ان لاينظر به ما حرم عليه النظر اليه ، ويطلبه اللسان الذي خلقه فيه بحقه ومن حقه وحق الله فيه ان لايحركه الا في ذكر او تلاوة او خير من امر بمعروف او نهي عن منكر او اصلاح بين الناس وان لايرسله فيما لايعني ، وتطلبه اليدان اللتان خلقهما فيه بحقهما كذلك وتطلبه القدمان بحقهما كذلك ويطلبه القلب بحقه ومن حقه وان يدفع عنه كل شيء يؤذيه فانه محل نزول السر الالهي ، ويطلبه العقل بحقه ومن حقه ان لا يصرفه الا فيما يعود عليه نفعه في دينه او دنياه ويمنعه من كل مسكر ومفسد ومن حق الله فيه ان يجتنب المكر والخديعة ، ويطلبه الفكر بحقه ومن حقه ان يستعمله في الوصول الى معرفة خالقه النظرية ، والفكر فيما امر الله في التفكر فيه ، وعلى الجملة يعطي كل ذي حق حقه .

ولكن ما هذه الحقوق التي يجب على كل جارحة ان تقوم بادائها ؟ ان ذلك قد فصله الامير في كتابه (المقراض الحاد ، لقطع لسان الطاعن في دين

الاسلام من اهل الباطل والالحاد) ، وهو كتاب الفه عندما كان محجوا عليه في (امبواز) في فرنسا ٠ قال فيه : ان شريعة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مشتملة على محاسن الاخلاق ومحامد الاداب وكل مايكون فيه الوفاق والائتلاف والاتفاق والخلوص بين العباد وما تصلح به المعيشة الدنيوية وتعمر به البلاد سواء في ذلك اهلها او غيرهم ٠ والاسلام جامع لكل ما تفرق في الاديان والشرائع السالفة كما قال المسيح ـ عليه السلام ـ ما جئت لابطل التوراة ولكن جئت لاكمله ٠ فكذلك محمد ـ عليه السلام ـ ماجاء ليبطل التوراة والانجيل ،ولكن جاء ليكملهما فالتوراة جاء بالقصاص « النفس بالنفس » والانجيل جاء بالعفو « اذا لطمك اخوك على خدك الايسر ضع له خدك الايمن » والقرآن جاءبالقصاص في قوله : « كتب عليكم القصاص في القتلى ٠٠٠ » وبالعفو في قوله : « فمن عفا واصلح فاجره على الله » الى غير ذلك مما يطول تتبعه والى هذا اشار محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) تعريفا بان الانبياء قبله بعثوا بمكارم الاخلاق وبقيت عليهم بقية فبعث بما كان معهم وبتمامها ٠ (قال الحكيم الترمذي) فما من خلق حسن ولا صفة حسنة سواء يدرك العقل حسنها او لا مما يحصل به طيب الحياة الدنيا الا جاء الشرع بمدحها والامر بها والوعد عليها بالجنة ، وما من صفة ذميمة او خصلة لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد الا جاء الشرع بذمها والنهي عنها والتوعد عليها بالعقاب)٠وبيان ذلك في مثل الصدق والوفاء والاحسان والايثار والاقتصاد في الامور والاشتغال بعيبالنفس عن عيوب الناس والانصاف من نفسك وانفاق المال لصيانة العرض والامر بالمعروفوالنهي عن المنكر واصلاح ذات البين واماطة الاذى عن الناس والاستشارة والادب ، والاحترام والاجلال لافاضل الناس وادخال السرور على الناس ، والارشاد لهم بالتعليم والتربية ، وافشاء السلام واكرام الجار واجابة السائل والاعطاء قبل السؤال واستكثار قليل الخير من الغير ، واحتقاره من نفسك وبذل الجاه ، وبذل البشاشة والبشر في وجوه الناس والتواضع والتعاون على الخير والتأني والتواد وتنزيل الناس منازلهم والصبر والتغافل عن زلل الناس وتحمل الاذى وترك

الاذى وترك الكبر ، وتجنب العجب وترك معاداة الرجال والجدال والتكلف وتجنب مواضع التهم وتجنب الظلم .. الى غير ذلك كالثبات في الامور وجلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم والحلم والحياء وحفظ الامانة والعهد وحماية العرض والصمت عما لايعني والتعقل في المقال والتأمل فيه ، وحسن الظن وطيب المعاشرة وطلب المعيشة ورحمة الضعفاء والصغار والرضا بالدون من المجالس ، والرقة وخدمة الضيف والاصحاب والفقراء ، والرفق في المعيشة والرأفةوالزهد في الدنيا والسخاء والسماحة والصفح عن المذنب والصدقة وصلة الرحموطهارة الباطن والعفة والعدل والعفو ، وعلو الهمة والقيام بحق الحق تعالى والخلق وقبول الحق وقول الحق وقضاء حوائج الناس ، وكظم الغيظوالمداواة والمخاطبة بلين الكلام والمعاشرة بالمعروف ومعرفة الحق لاهله ولمن عرفه لك والمكافأة وهضم النفس وترك الحقد والحسد وحب المال وتجنب العداوة والبغضاء . فكل من تحلى بهذه الاخلاق الحميدة فهو القريب من الله في نظر الاسلام وهوالمسلم حقيقة ، وكل من فقدت منه هذه الاوصاف فهو بعيد عن الاسلام) .

اتساءل بعد ذكر هذا الذي ذكره الأمير من تعداد شمائل بها يكون المسلم مسلماً ، ترى هل صافح العرب مغرب الشمس وهزوا مشرقها وتجمعت لديهم محاصيل الفكر الانساني وتطلعوا الى النور في ابعد اشراقاته الا بهذا الذي امر به الاسلام من مكارم تدفع النفوس نحو اسمى الاهداف ؟

أطرح ذلك السؤال لاولئك الذين يظنون ان الاسلام ، بل كل دين ، غرضه ان ينقل الانسان من عالم الحياة على الارض الى عالم الموت تحت الرغام، وانهم واجدون في غيره ما يغني عنه ... فهم يقيمون افكارهم ومذاهبهم على عصبية مقية وعلى تحجر فيها ، وعلى الانطلاق من نقطة واحدةهي اشباع الغرائز، وجعل ارفع مقاصدهم الاغراض المادية ، ومن ثم تجد احدهم ينعت ما كتبهامثال الامير بانه من ثقافة الاوراق الصفراء ، بل تحدثه نفسه ان بطولة الأمير نفسه ،

وبطولة من حاكاهم من قبل ، امثال نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، ليست شيئاً الى جانب عزم له يصورة فيه الوهم انه لايلين ، مع ان احق ماينطبق عليه قول الشاعر :

رأيتك تطلب الابحار جهــلا وانت تكاد تغرق في الســواقي

ومعاذ الفكر المستنير والضمير الطاهر النقي ان يرضى لبناة الغد ، ولانسان يحمل في ذاتيته روح الانسان ، الا ما يبشر بالمحبة ، وينشر النور ويبتني الامجاد عن انكار ذات وعن ايمان بان من غفت في نفسه روح القدس لابد ان تصرعه الشهوات .

ورحم الله امير الشعراء فانه قال :

ان المغالط في الحقيقــة نفســه باغ عــلى النفس الضعيفة عاد

وقال :

الحق ســهم لاترشــــه بباطــل ما كان سهم المبطلين ســـديدا

والعب بغــير ســلاحــه فلربما قتل الرجال ســـلاحه المردودا

* * *

ـ الانموذج الرابع ـ

وفيه ان المؤمن لاينقلب الا في خـــير

قال الامير في الموقف (٢٥٦) : قال تعالى (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) المأمور ان يقول هذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون اتباعه لضمير الجماعة فكل مايصيب المؤمن مما قضاه الله تعالى وقدره من البلايا والرزايا في النفس والولد والاهل والمال فهو له لا عليه حيث كان ذلك لفائدة تعود عليه ومنفعة تنجر اليه ، وحينئذ فكل بلية تصيب المؤمن فهي نعمة توجب عليه حمد المولى تعالى وقد ورد في الصحيح (عجبا للمؤمن امره كله خير ، وليس ذلك الا للمؤمن ، نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله تعالى) والحمد لايكون الا لنعمة على الحامد ، وفي خبر آخر (عجبت للمؤمن ان الله لم يقض له قضاء الا كان خيرا له) رواه الامام احمد وروى عن امير المؤمن عمر بن الخطاب انه قال : (ما اصابتني مصيبة الا رأيت لله فيها على ثلاث نعم احدها كونها لم تكن في ديني ، ثانيها انها لم تكن اكبر فانه ما من مصيبة الا عند الله ما هو اعظم منها ، ثالثها ما وعد الله من الاجر)• وفي الصحيح (مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا اذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه) ولهذا المؤمن يحمد الله على كل حال ، وبهذا وصف الله تعالى امة محمد في التوراة قال (وامتــه الحمادون يحمدون الله على السراء والضراء) وهذا بخلاف الكافر ، فان كل ما قضاه وقدره الله فهو عليه لا له ، حتى ما صورته صورة نعمة فهو نقمة عليه، ولذا قيل ليس لله على كل كافر نعمة حقيقية • والمؤمن اذا صدرت منه مصية لابد ان يستغفر ويتوب يوما ما ، وكذا اذا عاود المعصية فانه يستغفر ويتوب وهكذا، وقد ورد في الخبر (ان الله يحب المؤمن المفتن التواب) رواه الامام احمد وناهيك بشيء يورث محبة الله تعالى لفاعله ، وورد في خبر ان العبد العاصي عندما

يبدل الله سيئاته حسناته يقول : يارب ان لي سيئات لا اراها ها هنا ، فان سيئات المؤمن التائب اما ان تبدل حسنات واما ان تغفر ولا يعاقب بها فهو بين احد الحسنيين واي مؤمن لايندم ولا يستغفر من معصيته هذا نادر والنادر لا حكم له، وقد اخبر تعالى انه يقبل توبة المؤمن مادام لم ينكشف له ملك الموت ، قال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب) بشر تعالى عباده المؤمنين انه اوجب على نفسه تفضلا وامتنانا ، فانه عبر بعلي وهي من ادوات الوجوب ، قبول توبة المؤمنين الذين يعملون السوء ويعصون ربهم بجهالة وسفاهة واغترار واماني وحماقة وغلبة شهوة مع ايمانهم بحرمة السوء الذي عملوه ، ثم يتوبون من قريب اي ماداموا لم تنكشف لهم احوال الاخرة ولم يشاهدوا ملك الموت ، ولو في حالة عجزهم عن النطق فتقبل توبتهم بقلوبهم.

* * *

ـ الانموذج الخامس ـ

تفسير لقول حجة الاسلام (ليس في الامكان ابدع مما كان)

قال الامير في الموقف (٢٢٦) قال تعالى (ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) المطلوب من الواقف على هذا الموقف ان يعطيه ما يستحقه من التأمل والانصاف فانها مسئلة تكسرت في البحث عنها اظافير كثيرين • ليعلم ان الاشياء الممكنة معلومة للحق تعالى حالة عدمها بعلم محيط اجمالي في تفصيل لايتناهى، والمشيئة المذكورة في هذه الآية هي المشيئة الوجودية (اعطى كل شيء) اي موجود خلقه ، طبيعته واستعداده ••• ان الممكن من حيث هو ممكن بالنظر الى حقيقة الامكان لايقتضي شيئا لذاته ، فلابد له من مرجح ، اذ وقوع احد المتساويين بلا مرجح محال لما يلزم من التساوي وعدم التساوي ، والمرجح لا يرجح الا بالعلم والارادة المتقدمين على الترجيح ، وبالنظر الى كون علمه تعالى قديما محيطا لا يقبل التغير لاستحالته ، فالممكن المعلوم حالة عدمه لايقبل التغير لما يلزم من انقلاب العلم جهلا • فلزم من هذا انه تعالى لا يعطي حقيقة وذاتاً من ذوات الممكنات حالة ايجاده ، من الاحوال والصفات ، الا ما علمه منه حالة عدمه من طلبه لذلك باستعداده وطبعه الذي هو مقتضى حقيقته ، اذ انقلاب الحقائق محال ، وصح قول حجة الاسلام الغزالي رضي الله (ليس في الامكان اصلا احسن ولا اتم ولا اكمل مما كان) لانه تعالى فعل بها واعطاها ما تطلبه باستعدادها وتستحقه بطبعها الذي علمه منها حالة عدمها ، فكما انه تعالى اخبر انه لايعطيها في النهاية الا وصفها بقوله : (سيجيزهم وصفهم انه حكيم عليم) (ولا يظلم ربك احدا) لانه علمهم على تلك الصفات والاحوال في الدنيا ، فكذلك في البداية لم يعطهم من الاحوال والصفات الا ما علمهم عليه قبل وجودهم وهي استعداداتهم ، لانه علمهم متى وجدوا انهم سيكونون على تلك الاحوال والصفات والهيئات والاوضاع ، لانها مقتضى استعداداتهم التي هي حقائقهم او لوازم حقائقهم • ومن البين ان العلم ظل للمعلوم وحكاية عنه ، فهو تابع له • ولا احسن ولا اكمل ولا اتم ولا ابدع ولا احكم من اعطاء كل مستعد ما هو مستعد له فانه لايطلب غيره بل لايقبله ، وانه لا يصلحه ولا يمشي به على حقيقته الا ذلك • الا ترى مثلا الى استعداد الشمعة للانطفاء بالنفخ

واستعداد قبضة الحشيش اليابس للاتقاد به ، ولو اراد النافخ ، اذا كان غير عالم بالاستعداد ولا حكيم فيعطي كل شيء ما يستحقه ، ايقاد الشمعة بالنفخ ماقبلت ذلك ، لانه خارج عن استعدادها كما انه اذا اراد اطفاء قبضة الحشيش بالنفخ ما قبلت ذلك كذلك ، والفعل والفاعل واحد ولكن الاستعدادات مختلفة والطبائع متباينة ، فالتجلي الالهي واحد وحقائق الممكنات تقبله بحسب استعداداتها وقوابلها . فمن الاستعدادات مايعم جميع اشخاص الحقيقة الواحدة ، وقد ينفرد كل نوع من انواع الجنس الواحد باستعداد وطبيعة كاستعداد انواع الحيوان المصوت كل نوع الى صوت يخالف الاخر ، وما ذلك الا لاختلاف الاستعددات وقد لاتنحصر الاستعدادات في اشخاص النوع الواحد ، ولا في انواع الحقيقة والجنس الواحد ، والحق تعالى واسع عليم بالاستعدادات على اختلافها ، حكيم يضع الاشياء مواضعها التي تستحقها ، جواد يعطي كل مستعد ما يطلبه باستعداده وهو معنى (اعطي كل شيء خلقه) اي طبيعته واستعداده (ثم هدى) اي بين ويسر وساق كل شيء بعد ايجاده الى ماهو مستعد له قبل ايجاده . فكلام حجة الاسلام رضي الله عنه ، انما هو في بيان انه تعالى ما ظلم احدا من خلقه ولا عدل به عما علمه منه حالة عدمه ، ولا نقصه خردلة مما طلبه باستعداده وخلقه وطبيعته ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ان نقصا فنقص ، وان كمالا فكمال ، وبهذا كانت له الحجة البالغة على مخلوقاته . ولو قيل لحجة الاسلام وهل في الامكان ان يخلق الله تعالى حقائق تقتضي باستعدادتها احوالا وصفات هي احسن واكمل واتم مما كان ، لقال نعم ، كيف وهو تعالى يقول (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) فاطلق . فجاز ان يكون اعلا . وقال سبحانه (ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) فاطلق كذلك ، وقال عز من قال (يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا امثالكم) فقيد بعدم المثلية ، وقال تقدست اسماؤه (انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم) فقيد في هذه الاية البدل بالخيرية ... ان حقائق الاشياء طالبة لصفاتها واحوالها واوضاعها التي تعرض لها بعد الايجاد العيني طلبا طبيعيا لزومياً والصفات والاحوال على اختلاف ازمنتها وامكنتها مترتبة ترتيبا اقتضائيا ، بحيث تكون الحالة الاولى جاذبة للتي بعدها مستلزمة لها ، كحلق السلسلة يجذب بعضها بعضا جذبا طبيعيا . وان الكثيف الثقيل استعداده وطلبه يقتضي ان يكون

اسفل ولا يليق به ويصلحه الا ذاك، كالارض وما خلق منها من حيوان وانسان، وان اللطيف الخفيف استعداده وطبيعته يقتضي ان يكون اعلا . والماء امره الى انحدار وقس على هذا ... فهو تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ولا يشاء ويختار الا ما علم من كل معلوم حال عدمه ما سيصير اليه، وما عليه كل ممكن حالة وجوده، من جميع احواله وصفاته التي لانهاية لها . فلا يصح ان يقال : الحق تعالى يعجز عن شيء، بل هو القادر المطلق . ولكن يقال الحق تعالى لا يفعل الا ما اراد واختار، ولا يريد ويختار الا ما علم والمعلوم لايتغير ... والحاصل ان حجة الاسلام رضي الله عنه رمز بهذه المقالة الى سر القدر المتحكم في الخلائق وهو الذي تنتهي اليه الاسباب والعلل، وهو لا سبب له ولا علة، فلا يقال فيه لم ولا كيف .

وقال في الموقف (٩٤) قال تعالى : (وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) نصيب كل مخلوق هو مقتضى حقيقته واستعداده الذي لايزاد عليه ولا ينقص منه ، وهو معنى (اعطي كل شيء خلقه ثم هدى) ولكل مخلوق استعداد هو نصيبه من الحق تعالى فالاستعداد هو الطالب المجاب والداعي الذي لايرد دعاؤه وهو المراد بقوله (اجيب دعوة الداع اذا دعان) ان كان المراد الاجابة بالمطلوب فـ(ال) في (الداعي) للعهد، وهو الداعي الذي يقبل دعاؤه ولابد، وليس ذلك الا الاستعداد. فالاستعداد مجاب وافقه اللسان او خالفه ، او لا وافقه ولا خالفه وهو معنى ما ورد في الصحيح (كل ميسر لما خلق له) فلون القار مثلا استعداده السواد وهو نصيبه من الحق تعالى ، فلابد ان يسود ، سأله بلسانه او لم يسأله . ولايمكن للشيء ان يقول يارب اجعلني غير اناه والشقة من الكتان كذلك نصيبها من الحق تعالى البياض ، وهو استعدادها وحقيقتها كما قلنا في القار سواء . والى هذا المنحا يشير قوله تعالى (ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) اي انه تعالى لايغير حال قوم او احد وينقلهم من حالة الى حالة ادنى او على ، في الظاهر ، حتى يغيروا ذلك بانفسهم ، بمعنى يطلبون باستعدادهم في الباطن من الحق تعالى ايجاد تلك الحالة المتنقل اليها وهو معنى التغير ، فليس للحق تعالى الا اعطاء الوجود لتلك الحالة المتنقل اليها بطلبهم الاستعدادي وارادتهم لذلك وهكذا على الدوام في جميع الاحوال، في جميع المخلوقات، فما حكم عليهم غير انفسهم . قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم) وقال (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين).

ـ الانموذج السادس ـ

مثال مما دس على الاسلام (اكذوبة الغرانيق والرد عليها)

قال الامير في الموقف (٢٤٢) قال تعالى (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته) الآية ، اعلم انه لما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقول للناس (ايها الناس انما انا لكم نذير مبين، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك اصحاب الجحيم) اي ارسلت اليكم لتمييز اهل السعادة من اهل الشقاوة فلا بد ان يؤمن بي بعضكم فيسعد ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخر الآية ، ويكفر بعضكم فيشقى وهم الذين سعوا في آيات الله معاجزين الى آخر الآية • تنبيها له صلى الله عليه وسلم ، لئلا يصدر منه ماصدر من الرسل والانبياء قبله من التمني ، رتب على ذلك اخباره صلى الله عليه وسلم بقوله (وما ارسلنا من قبلك من رسول الى آخر الآية)ذلك انه تعالى ما ارسل رسولا مستقلا بالدعوة ولا نبيا داعيا الى اتباع شريعة من قبله من الرسل الا ويحققه بصفة الرحمة الكاملة والرأفة الشاملة ، فيتمنى لذلك ويقول بلسانه لا بقلبه ، لان التمني ليس من اعمال القلوب ، ويتلفظ بقوله (ليت الحق تعالى يهدي جميع من امرني بدعوتهم اليه) وهذا التمني قهري طبيعي في كل رسول ونبي كسائر الامور الطبيعية لما يغلب عليهم صلوات الله عليهم وسلامه من ارادة الخير لعباد الله وحب نجاتهم ، وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جانب عظيم من هذا ، كما اخبر الحق تعالى عنه في غير ما آية ، غير انه ما صدر منه من هذا التمني قطعا ،مع ان كل رسول ونبي يعلم انه تعالى ما امرهم بدعوة الخلق الا لتمييز القبضتين وتبين اصحاب الشمال من اصحاب اليمين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل • وحيث كان هذا التمني وان كان خيرا بادىء الرأي، فهو مناقض للعبودية المحضة التي هي القاء القياد بيد العليم الحكيم ، وعدم الاختيار لشيء معه تعالى ، مع ان التمني لا جدوى له ولا فائدة ، لان الشيء المتمني حصوله لا يخلو اما ان يكون مقدورا حصوله او غير مقدور ، فان كان

غير مقدور فهو معارضة القدر وان كان مقدوراً فهو تضييع للوقت وبطالة ، ولما كانت مرتبتهم عند الحق تعالى اسمى المراتب اقتضت ان الاولى بهم صلوات الله وسلامه عليهم تركه وان كان هذا لايقدح في مراتبهم العلية حيث انه كالامور الطبيعية القهرية لهم ولكنه فيه شوب من عدم الوقوف مع العبودية المحضة التي تقتضيها مرتبتهم وذلك لما جبل عليه البشر من الغفلة فانه امر ذاتي لايرفع ابدا ولا عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولذا تقرر في القرآن العزيز الامر للرسل ان يقولوا لامهم (انما نحن بشر) • قال الشيخ محي الدين الحاتمي (ما رأيت ولا سمعت عن احد من المقربين انه وقف مع ربه على مقام العبودية المحضة فالملأ الاعلى يقول (اتجعل فيها من يفسد فيها) والمصطفون من البشر يقولون (لاتذر على الارض من الكافرين ديارا) (ان تهلك هذه العصابة لن تعبد بعد اليوم) ولما صدر منهم صلوات الله وسلامه عليهم هذا التمني ادبهم الحق تعالى • فالكل يرتاب ويتوقف ، كما قال سبحانه (كلما جاء امة رسولها كذبوه) وقال (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون) فينسخ الله ما يلقي الشيطان باظهار المعجزات الخارقة والآيات المتتابعة ، فيعرف الكل صدقه فمن سبقت له سعادة اظهر ما عرف باطنا ، ومن سبقت شقاوته جحد واستكبر كما قال (انهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقال (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) ونعمة الله هي محمد صلى الله عليه وسلم وقال (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا) اي جحدوا بها ظلما وعلوا مع ايمانهم انها من الله تعالى تصديقا لرسله • ومن طالع كتب السير علم ان المشركين كانوا عالمين صدقه صلى الله عليه وسلم ، ولكن جحدوا استكبارا وعن سبق شقاوة ، وقد شهد الله تعالى ان اليهود كانوا يعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم كما يعرفون ابناءهم ثم يلقي الشيطان للمكذبين ، انكم خسرتم انفسكم وسفهتم احلامكم بعدم اظهار ما علمتم من صدقه ، ثم يلقي اليهم الشك ايضا وهذا دأبهم ودأب الشيطان معهم يشككهم في صدقه ، ثم يشككهم في كذبه ، وذا حال من كان في زمانه من الكفار كما قال (فهم في ريبهم يترددون) • يقول

الكفار الجاحدون وهم القاسية قلوبهم (عار علينا ان نظهر تصديقه بعد جحوده) استكبارا وعنادا كما قال تعالى (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) وقال (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) .

فاشدد يديك وعض بالنواجذ على ما سمعت في هذه الآية ، ولا تلتفت الى ما ذكره كثير من المفسرين فيها من قصة الغرانيق التي وضعها بعض الملاحدة ليدخل الشك في الوحي والقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون) واني لا سأل من اللهالعفو والسماحة للحافظ ابن حجر فالآية ما اخبرت ان هذا كان من محمد صلى الله عليه وسلم ، وانما قال تعالى (وما ارسلنا من قبلك) فهو اخبار له صلى الله عليه وسلم لا اخبار عنه . وصريح الآية ان هذا التمني واقع من كل نبي ورسول ارسله الله تعالى ، والنطق بقصة الغرانيق كفر ضرورة ، اللهم انا نعوذ بك من التلبيس ، ومن نزغات ابليس . ومن ان نضل او نضل .)

اقول تعليقاً على ما ذكره الأمير عليه رحمة الله ان قصة الغرانيق لم ترد في كتاب صحيح من الكتب الستةوالرواية غريبةومنكرة وتتنافى مع قول الله تعالى(ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقوله سبحانه (قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحي الي) وقوله جل ثناؤه (وما ينطق عن الهوى) مما يدل على عصمته صلى الله عليه وسلم من الخطأ في تبليغ ما اوحي اليه . وخلاصة القصة الموضوعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رأى اعراض كثير من وجهآء قومه تمنى ان يأتيه من الله ما يقرب بينه وبينهم حرصاً منه على ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من اندية قريش وأحب ان لا يأتيه من الله شيء ينفرهم عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سوره (والنجم اذا هوى) فقرأها حتى اذا ما بلغ الى قوله تعالى (افرأيتم اللات والعزى ومناة

الثالثه الاخرى) القى الشيطان على لسانه ـ تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لهي التي ترجى ـ ثم اتم السوره • فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وقالوا ذكر محمد الهتنا بأحسن الذكر ، ولكن الله نسخ ما القى الشيطان واحكم الله آياته وحفظه من الفرية ، وانزل عليه سبحانه (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنية فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته) • مع ان تفسير الآية هو الذي بينه الأمير وهو الذي ينساق مع معنى الآية الأولى على ما اوضحه في الموقف (٢٤٢) الذي ذكرناه •

وان في القصة مثالا لما قذفه فكر الذين اندسوا في الاسلام لتهديم الاسلام• وقد انطلى قسم كبير من دسائسهم على سذج صرفهم عن روح العقيدة حيلة في الحكاية واسطورة زخرف لها القول بفن وببراعة بيان •

وما حل بالمسلمين كرب ولا تفاقم بهم خطب الا بسبب ما ألقوه من سمع الى دسائس فجعلوا للكيد ، فيهم ، ان ينتصر •

ولو انهم اصغوا لاصحاب العقول فيهم وائمة هداهم بدلا من ان يلقوا بسمعهم الى الذين لا يريدون لدينهم الا ان تنهار دعائمه ولا لوحدتهم الا ان تتهدم اركانها، لمازلت بهم الاقدام واحاط بهم الاعداء من كل جانب •

* * *

ـ الانموذج السابع ـ

الحث للتعلم من الوارث المحمدي والهجرة اليه

قال الامير في الموقف (١٨٥) قال تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله) الهجرة الى الله قلبية وهي الاساس الاول والامر الذي عليه المعو ، وهي بحصول الزاجر الالهي والعزوف عما كان عليه من المخالفات للاوامر الالهية ، والهجرة الى رسوله هي المقصد الثاني للدلالة وتعريف سلوك طريق المطلوب ، وهي جسمانية ، وكما كانت الهجرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة قبل الفتح ، فتح مكة ،فهي اليوم باقية لورثة احواله واسراره ، الدالين على الله تعالى ، الداعين الى معرفته ٠

(ثم يدركه الموت) قبل اجتماعه بالرسول او وارثه او قبل حصوله على المطلوب الذي هاجر لاجله ٠ (فقد وقع) ثبت (اجره) اي جزاؤه (على الله) اوجبه تعالى على نفسه تفضلا وامتنانا وان الله لذو فضل على العالمين، فيبعث المهاجر لمعرفة الله تعالى والقرب منه في عداد العارفين بالله وفي مقاماتهم العلية ، فكم ترى في الآخرة ممن لم يحصل على معرفة الله في الدنيا وقد حشر في زمرة العارفين بالله تعالى ، ونال منزلتهم ، وكذلك طالب حفظ كتاب الله وطالب العلم لوجه الله يبعثان في عداد الحفاظ والعلماء ، وفي مقاماتهم ؟ بل هؤلاء اكمل نعيما فانهم لا يسألون عما حصل لهم في الاخرة من الانعام بخلاف من حصل لهم في الدنيا فانهم يسألون عن ذلك النعيم ٠ والهجرة الى الرسول او وارثه واجبة على الاعيان الا اذا سبقت للعبد عناية ازلية وكان من المرادين ورحمه الله تعالى بجذبة رحمانية ، وخطفة ربانية ، فعرف نفسه فعرف ربه فتسقط عنه الهجرة ، كما ورد في الصحيح (لا هجرة بعد الفتح) لان العبد اذا رقاه الحق فصار حقا ، فليس عليه هجرة لطلب الدليل ، ولذا قال القوم رضوان الله عليهم (ليس للشيخ

على المريد بعد الفتح الا مرتبة الصحبة ، والاخوة والمشاورة ، لا غير) واما الهجرة الى الله فالفتح بدونها مستحيل) .

يطيب لي اتماماً للفائدة عن بحث الهجرة ان اذكر ما قاله الحاج البشير بن حواء الجزائري حين استشاره اقاربه في الهجرة من الجزائر الى الشام بعد احتلال الفرنسيين قال : (اذا كان الملك في بلدة كالشام وكانت بنت الملك في بلده كمعسكر (عاصمة الأمير عبد القادر في الجزائر) وقد هجم العدو على بنت الملك في معسكر ، فما هو الأفضل لسكان معسكر هل هو البقاء مع بنت الملك والمدافعة عنها وتخليصها من العدو ، او هو الهرب بانفسهم لبلدة الملك ؟) ثم قال لهم (الملك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنته هي شريعته في مدينة معسكر ، والفضل العظيم والمزية الكبرى لمن يبقى في بلدة الاسلامية ويقوم بالدين ويقوي سواد المسلمين . واما من هاجر وفر بنفسه غير مبال بوطنه وامته فلا مزية له مع اهل دينه وملته . والله الموفق .

وفي الكشاف (قالوا كل هجرة لغرض ديني من طلب علم او حج او جهاد او فرار الى بلد يزداد فيه طاعة او قناعة او زهداً في الدنيا او ابتغاء رزق طيب فهي هجرة الى الله ورسوله ، وان ادركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله .)

ذكرت هذه الانواع من الفتاوى او الآراء حتى يتفتح الذهن لعدد من الاجتهادات للحادثة الواحدة ، وليجد الطالب ما يفتي به لنفسه على مقتضى حاله، وليقيس مثل هذا التنوع بالحكم مع تغاير الحال على غير هذه القضية .

وليس لتوسيع التفكير شيء مثل استعراض آراء الحصفاء من الرجال للقضية الواحدة .

والناس لم يذهبوا بعيداً في التفكير الا بعد الارتياض على اقامة الفكر على اساس الافادة من اختلاف الآراء والتمعن باسباب ذلك الاختلاف .

ـ الانموذج الثامن ـ

وفيه سر في التفسير هو ان اللفظ الواحد يختلف مدلوله باختلاف من ينسب اليهم

قال الامير في الموقف (٢٩٣) قال تعالى : (ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، انه من عبادنا المخلصين) الهم ثاني الحركات النفسية الخمسة التي تتقدم الفعل وهي الخاطر ، ثم الهم ، ثم العزم ، ثم القصد ، ثم النية ، وهي تقارن الفعل • وفي ذكر همها به وهمه بها بيان ما كانت عليه من شدة الطلب والتوصل الى مقصودها باي وجه كان،وما كان عليه هو عليه السلام من العفة مع رحمته بها لما اصابها من العشق • وما بين تعالى ما همت به لانه معلوم من قوله سبحانه وراودته ، ولا ما هم به هو عليه السلام لانه معلوم من قوله عز وجل (قال معاذ الله) • فاما همها به اي بشأنه فهو فيما يوصلها الى مطلوبها منه باي وجه كان وانها اولا دعته الى ما دعته اليــه بعزة السيادة وقهر الملكية فقالت له آمرة (هيت لك) اي بادر واقرب فلما اجابها بقوله (معاذ الله انه لايفلح الظالمون) انكسرت حدتها وفترت شدتها وعلمت ان السطوة والقهر لايجديان نفعا ولا يشعبان لها صدعا فهمت به بان تلقي نفسها بين يديه وتتطارح على رجليه وتظهر ذلتها وتفارق عزتها • واما همه عليه السلام بها فهو ان يظهر لها رحمته بها وشفقته عليها، وانه يحبها حبا آلهيا روحانيا اسمائيا حيث ان المرأة من حيث هي مظهر مرتبة الانفعال التي بها ظهرت مرتبة الفعل ،والكامل مظهر مرتبة الفعل مرتبة الاسماء والاسماء اشد حبا لمرتبة الانفعال من محبة مرتبة الانفعال للاسماء ومن هذا المشهد حبب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى كل كامل من نبي وولي النساء فلا تجد كاملا الا وهو يحب النساء لهـذا الشهود ، فاظهر الحق تعالى ليوسف عليه السلام في سره برهان حكمته ان لايقول ما هم به ولا يظهره لها فانها جاهلة عاشقة والعشق يخرج صاحبه عن ميزان

العقل حتى قيل ولا خير في حب يدبر بالعقل ، وان اظهار ما هم به لها يزيدها طمعا وتكالبا ويقوي رجاها في نيل مقصودها • (كذلك) اي كما ابتليناه بها ووجدناه صابرا على الامر والنهي نعم العبد اريناه برهان حكمتنا بترك ما هم به (لنصرف عنه السوء) فما هم بسوء فان الهم بالسوء من السوء وقد صرفه الله عنه لانه من عباده تعالى المضافين اليه اضافة تخصيص وتشريف المخلصين المستخلصين للنبوة والامانة وحمل الوحي الجبرائيلي الاختصاصي • فاعرف يا اخي مقام النبوة الاسمى واثبت له كل كمال ونزهة عن كل ما يجلب عيبا ووصما واعرف الحق تعرف اهله فلا تقلد في هذا وامثاله احدا من كذبة المؤرخين وجهلة المفسرين •

* * *

ـ الانموذج التاسع ـ

وفيه الكيفية التي تكون معها الخصومة عن حسن نية والسر في عدم اجتماع كلمة الامة في عهد الامام علي عليه السلام

قال الامير في الموقف (٢٩٦) قال تعالى : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا) اعلم ان كثيرا من العلماء يتعجبون من عدم اجتماع كلمة المسلمين على الامام علي عليه السلام وليس لمعاوية رضي الله عنه من السابقة في الاسلام ما للامام علي عليه السلام ولا له علم كعلمه ، ولا زهد كزهده ولا ورع كورعه،ولا شجاعة كشجاعته ولا قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كقرابته ، ولا منقبة كمناقبه ، فاخبرتهم ان لايمكن لاحد من المسلمين ممن في عصر الامام علي عليه السلام ان يخالف في افضلية الامام واحقيته بالامر من جميع الموجودين في ذلك الوقت ، ولا يخالف في ذلك معاوية نفسه ولا ينكره رضي الله عنه ، وما ينقله بعض كذبة المؤرخين المتعصبين فهو افتراء عليه رضي الله عنه، وانما كان ما كان وحصل ما حصل لكون قتلة عثمان رضي الله عنه المتمالئين على خلعه وقتله كانوا مؤلفين من اكثر قبائل العرب ولما افضت الخلافة الى سيدنا الامام علي عليه السلام اختلطوا بعشائرهم وكانت عشائرهم اكثر اتباع الامام فحمتهم عشائرهم للعصبية المعروفة في العرب حتى انه نقل ان الامام عليه السلام قال يوما في جيشه ، ليقم قتلة عثمان ، فقام الجيش كله الا بعض افراد فرأى عليه السلام ان القود في ذلك الوقت غير ممكن ، فما تخلف من تخلف عن الامام علي عليه السلام الا كراهية الاجتماع مع قتلة عثمان رضي الله عنه ، ولا انتصر معاوية رضي الله عنه الا على قتلة عثمان رضي الله عنه لا على الامام علي عليه السلام ، فان الله تعالى وعد ولي المقتول ظلما بالنصر ، ومعاوية رضي الله عنه ما كان يطلب اولا في الظاهر ، والله يتولى السرائر ، الا دم عثمان من قتلته وهو وليه وان كان يوجد من هو اقرب منه قرابة ، ولكن رأى معاوية رضي الله عنه من هو اقرب منه عاجزا عن طلب دم عثمان فكان مجتهدا مخطئا له اجر واحد ،)

اقول لما كانت الفتنة في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد قام بها الرعاع ـ الذين يقول فيهـم الحسن البصري انهـم قتلة الانبياء وينقادون للأهواء ـ وغذا تلك الفتنة الذين اندسوا في الاسلام عن مكر وللكيد ، واشار على الخليفة اصحابه الا يتخلى عن الخلافة حتى لا يترك الامة بعضها ضد بعض ، ولكي لا تكون سنة ، كلما كرهت العامة ولي امرها ، وهم اتبـاع من يقودهم بشهواتهم ، خلعوه ، وليبقى الكلام لاهل الحل والعقد دون غيرهم ، ثم كان من الخليفة ان قال (اعزم على كل من رأى ان عليـه سمعاً وطاعـة الا كف يده وسلاحه) كف الموالون له ، وبادر اصحاب الفتنة فقتلوه ، اعلى الله مقامه في دار الخلود • وكان بعد ذلك ان بقيت المدينة خمسة ايام في هرج ، عزم المهاجرون والانصار خلالها ، على الامام علي عليه السلام حتى يقبل وعقدت له البيعة •••

وخرجت ام المؤمنين عائشـة رضي الله عنها راجيـة المثوبه للصلح بين المنشقين ، فزلت ، بعد ، اقدام ، حتى بلغت الاقضية مقاديرها ، لأن الفتنة اذا سعرت يحجب جوها المربد كل نية كريمة •

ثم ان الامام علي عليه السلام ارسل جرير بن عبد الله البجلي الى معاوية في دمشق يبلغه اجتماع اهل الحل والعقد على مبايعته ويدعوه الى طاعته ، وكان مما اثير في دمشق هو المطالبة بدم عثمان واستفظاع قتله وشجب حركة المتمردين العصاة • ولذلك جمع معاوية رؤوس الصحابة الذين كانوا في دمشق وقادة جيشه يستشيرهم• فكان مما ذكر في تلك الجلسة ان قتلة عثمان جميعهم انضموا الى جيش الامام ، ولذلك طالب معاوية ومن معه ان يقيم الامام الحد عليهم او ان يسلمهم اليه لقيم عليهم حد الله •

ولكن قتلة عثمان كانوا في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم، واقامة الحد عليهم يفتح باباً للفتن لا يغلق في الوقت الذي طالب فيه معاوية اقامة الحد عليهم • وما لبث قتلة عثمان ان انشبوا الحرب بين الفريقين • وهكذا تواصلت الفتن مدة

خمس سنوات ... كان المسلمون خلالها ، وقد كانت الكلمة فيهم للناعقين ، في غفلة عن قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا !) وقوله سبحانه (تواصوا بالصبر ، وتواصلوا بالرحمة) ،وقوله عز من قائل (خذ العفو، وأمر بالعرف ، واعرض عن الجاهلين) حتى زرعوا ما تحالفت عليهم بسببه الرزايا وهو الانشقاق .

ورحم الله شوقي فانه قال :

واذا اتى الارشــاد من باب الهوى … ومن الغــرور فسمه التضليلا
ان الـذي خلق الحقيقــة علقما … لم يخل من اهل الحقيقــة جيلا

وقد كان الأمير عبد القادر عليه رحمة الله من اهل الحقيقة في قوله الذي قاله عن السبب في عدم اجتماع كلمة المسلمين على الامام علي عليه السلام ... والعبرة كل العبرة فيما ذكره هو ان جميع قتلة الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والذين اثاروا الفتن واهرقوا الدماء ، قد قتلوا فريقا اثر فريق ، وواحداً وواحداً اثر واحد ، وهكذا ارتد الكيد الى نحور من كادوه ، وانقلبت السهام على رماتها .

* * *

ـ الانموذج العاشر ـ

وفيه مثل للقدر وللعناية التي تكون لله على افراد من خلقه

قال الامير في الموقف (٢٦٥) : سألت من الحق تعالى بشارة بسعادتي ، وقد فعل ذلك مرارا ولكن لتكرار البشارة لذة فالقى علي قوله (لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) فبعد رجوعي الى الحس ، قلت يارب هذا خطابك لفرعون واية مناسبة بين مطلوبي وهذا الخطاب فالهمني في الحال بالطريق التي عودنيها ان فرعون عاش ما عاش سعيدا سيدا بل الها يعبد ، ولما حضرت وفاته قبضه الله بعد توبته وايمانه طاهرا مطهرا شهيدا وهو في الآخرة ملك من ملوك الجنة ، واكثر الناس يأبون عليه ذلك ، وانت سعيد في الدنيا والآخرة ، واكثر الناس يأبون عليك ذلك بما يرون ما خولك الله من النعم ، وبسط لك من المال والولد ، والعز ، والجاه العريض ، وما نشر لك من الصيت الذي ملاء المعمورة مع مخالطتك لارباب المناصب الدنيوية ومشاركتك لهم في زيهم ، فهم يستبعدون جمع السعادتين لك ، واما انتسابك الى الطائفة العلية والفرقة الناجية فذلك عندهم ابعد وابعد ، (وان كثيرا من الناس عن آياتنا) الدالة على غنانا من طاعة الطائعين وعزتنا عن التأثر من عصيان العاصين (لغافلون) غير منتبهين لجريان القضاء الأزلي كيف قدم من قدم بلا علة ، واخر من اخر بلا علة ، واشقى واسعد ، والى عليته ينتهي السند . فما هنالك الا عناية الاهية وقدم صدق ربانيا يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ولو كان له غرض ما ثبت فضله وقد ثبت فضله. لا يسأل عما يفعل ، فلا تحجير عليه ولا قانون يحصره ، فما في حضرة فضله كبيرة ، ولا في حضرة عدله صغيرة ، لا اله الا هو العزيز الحكيم) .

اقول ان الأمير عليه رحمة الله تكلم هنا بلسان صاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود فعل الملك الحق ، وفني عن الاسباب بشهود مسبب الاسباب .

وهذه الحال من اروع مايكون عليه الانسان من حال ، اذ بها يزداد سعادة الى سعادة ، ويتحسس بما وراء المظاهر والرسوم ، الى نعم لاتكون الا من الحي القيوم ٠ وكم من سعيد ليس سعيداً لانه لايدري انه سعيد ٠ اين هذا من الذي يتحسس ان الله قد وهبه السعادة ، وانه سيكون بعد الموت على سعادة اوسع وبحياة اعز وابهى وأمتع ٠

ومن هنا كان الصوفي هانىء الحس والنفس والروح حتى بالقليل القليل من عطايا الله ٠٠٠

ذلك ان كل مايكون من المظاهر مايكون فيه ما ينهض على مستوى مايكون عامراً في الباطن ٠

قال ابراهيم بن ادهم (خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا اروع ما فيها ، وهي : حلاوة المعرفة ، ولذة المناجاة ، وما يتنزل على القلب لدن عبادة الله وحضور القلب مع الله ٠

فما تكون السعادة الحقه الا في شواغل الفكر بالاء الله ، وتنعم الروح بعطايا الله ، ومن ثم كانت الصلاة سبب المصافاة ، وبها يصبح قلب من يرتاض عليها قلباً سماوياً معطراً بعبير الانداء من النعيم الابدي) ٠

* * *

(١٩)

لقد اخترت عشرة نماذج من مباحث المواقف وكنت اود لو ان الوقت يتسع لانقل معها عشرة مباحث اخرى ، وهي :

١ ـ مبحث عدم الحرج في الدين وان النبي صلى الله عليه وسلم كان يختار الأيسر وهو موضوع ذكر بص ١٤٤ ح ٢

٢ ـ ما ذكره عن الروح في كل كائن وفي انبثاثه في كل شيء وهو موضوع عالجه في ص ١٤٧ و ١٥٥ و ١٥٨ و ١٧١ ح ٢ .

٣ ـ ما ذكره من كتب نسبت للشيخ محي الدين وليست له . ذكر ذلك بص ١٥٢ ح ٢ .

٤ ـ ماذكره عن الادعية ومباحثها بص ٤١٠ و ٤١٢ ح ٢ .

٥ ـ ما قاله عن اسرار بآيات وكان رضي الله عنه يتحصن بها ص ٣٧٨ ح ٣ .

٦ ـ ماذكره من مبحث عن اسرار في النباتات وعن احالة الحديد الى ذهب وسبب اختفاء العلم بذلك . ذكر ذلك بص ١٥١ و ١٥٦ ح ٢ .

٧ ـ ماذكره من مبحث عن اسمه اللطيف سبحانه بص ٣٦ ح ١ .

٨ ـ ماذكره من مبحث عن اسمه الحكيم سبحانه بص ٦٨ و ١٣٥ ح ١ .

٩ ـ ماذكره من تفسير لقوله تعالى (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه) .

١٠ ـ ماذكره من بحث في الموقف (٢٠٩) ص ٤٠٨ ح ١ عن كلام الله وانه غير مخلوق وهو بحث دقيق جدير بكل من قرأ عن الفتنة التي كانت في زمن المأمون بسبب ذلك ان يقرأه .

(٢٠)

واختم كلمتي بعد نقلي ما ذكرته من مختارات بان الامير عبد القادر عليه رحمه الله بلغ من حياته ما يشتهي وكانت اليه امارة السيف وامارة الشعر ، وادرك الذرى برفعة الشأن من كل شيء فوق شمائل كريمة وفضائل هي فوق

كل بيان ، وكانت له مكانة سامقة في دنياه عزت فما اجتمعت من قبل في فرد الا في القليل النادر ، ولكنه لم يجد للهناء ظلا على الكوكب الارضي الا بذلك النور الذي يكسب الاحاسيس الراحة الكبرى ، وينير في القلب مشكاة اليقين ، وهو في الايمان بالله وحسن الثقة به والتوكل عليه •

ومن في الامراء بعد مئتين والف سنة هجرية ، وبعد هذا الذي ذكرناه ، كالامير عبد القادر الجزائري تولى الامارة الدنيوية فلم يزهه انه كان البطل الشجاع والسياسي الالمعي والامير العادل والعالم المحقق، بل كانت سعادته الكاملة مذ انطلق زاهدا متجردا يمشي على نورين من المعرفة والورع اي مذ باتت افعاله نوافح العبير من تراث النبوة وفي سيرته طيب من اعراف الجنة حيث كانت حياته على ما كان يدعو الله سبحانه يستنزل عليه رحمته يقول :

اللهم لاتكلنا الا الى رحمتك ، ولا تعرضنا الا للعمل بطاعتك ، وارحم كل عبد يهواك ويحن الى لقاك ، وينشد رضاك ، انا لعجزة عن قدرة نطلبها بدون توفيقك ، وضعفه عن التماس شيء لم تخلقه ، ارنا اللهم الحق حقا وهيئنا لاتباعه ، وارنا الباطل باطلا ووفقنا للاعراض عنه •) •

ذلك هو دعاؤه وفيه ما يكشف عن ايمانه والخطوط البارزة من مبادىء ايمانه •

اما ما يصور رقة قلبه فهو ما ارسله لابنه محمد (وهو الامير محمد باشا) من ميدان الحرب وقد كان مر عليه سنة كاملة بعيدا عن اهله فكتب متشوقا اليه متعطشا للقائه :

بنيّ ، لئن دعاك الشوق يوما — وحنّت للقا منا القلوب
ورمت بان تنال سنا ووصلا — يصح ـ بعيده ـ القلب الكئيب
فاني منك اولى باشتياق — وناري في الفؤاد لها لهيب
وان اخفي اشتياقي ، في فؤادي — فان الشوق يكتمه الاريب

واما ما يصور قوة شخصيته واعتداده بنفسه فقوله وهو في احد ميادين الحرب :

لنـا في كل مكرمـة مجـال ... ومن فوق السـماك لنـا رجال
ركبنـا للمكـارم كل هـول ... وخضنـا ابحرا ولهـا زجال
اذا عنهـا توانى الغير عجـزا ... فنحن الراحلون لهـا عجـال
سـوانا ليس بالمقصـود لما ... ينـادى المستغيث : الا تعالوا !

الى ان قال :

ونحلم ان جنى السـفهاء حقـا ... ومن قبـل السؤال لنـا نوال
ورثنا سـؤددا للعـرب يبقى ... وما تبقى السماء ولا الجبـال
فبالجـد القـديم علت قريش ... ومنـا فوق ذا طـابت فعـال
وكان لنـا دوام الدهـر ذكر ... بـذا نطق الكتـاب ولا يـزال
ومنـا لم يزل في كل عصـر ... رجـال للرجـال هـم الرجـال
سـلوا عنـا الفرانس تخبرنكم ... ويصـدق اذ حكت منهـا المقال
فكم لي فيهـم من يوم حـرب ... به افتخـر الزمان ولا يـزال

الا رحم الله الامير الجزائري لقد كانت اقواله تصدقها الافعال ، ومن ثم خط مجدا لايطاول ولايطال ، فكان العالم والشاعر والزعيم والبطل الذي لم تكن للمناصب ولا للمال ولا للجاه ولا للحياة ولا لشيء في الدنيا له قيمة امام ما يعمل له من غايات مقدسة وما به يضرب المثل لتبقى الامـة متمسـكة بحقها وبأمجادها وبمقدساتها . فكان للجزائر مدة ستة عشر عاما قائدا يذود ، ورأسا يدبر والمتأهب لمنازلة الصعاب والمحن بفكره وبسيفه وبقلمه . فاذا ما قال رجل عظيم كفولتير : (ما عليّ اذا لم يكن لي صولجان ، اليس لي قلم ؟) فان ميزة الامير ان كان له صولجان وكان له قلم ، ولكن الذي يفتخر به كل جزائري بل كل عربي وكل مسلم انه لم يجعلهما الا لما يقتحم لامته به طريق الخلود ، وان كان له من الآراء والمآثر والاعمال والمبرات ما يجعله لا في طليعة الزعماء والقادة ، ولا في طليعة العباقرة والمفكرين ، بل وفي طليعة عباد الرحمن المتصوفين .

دمشق الاثنين في ١٦ ربيع الاول ١٣٨٦ الموافق ٤ تموز ١٩٦٦

جواد المرابط

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	١	وقد ورد	(وقد ورد
١١	٦	في الدين	في الدين)
١٤	٤	صراط المنعم	صراط ، المنعم
١٦	٥	كان	كانت
١٧	٣١	اسافرات	اساءات
٢١	٧	والقبيع	والقبيح
٢٢	٧	الاحمر	الأحمر
٢٢	٢٤	ان الله	ان لله
٢٦	٥	ابيانهم	ابياتهم
٢٦	١٢	سرى	سري
٣٠	٩	عباده اللهم	عباده · اللهم
٣١	٢١	يقول	يقوم
٤٠	٢٦	اكثرما	واكثرما
٤١	٩	سيرون المخادعة	سيرون ، ايام سلمهم معه، المخادعة
٤١	٢١	نبين	تبين
٤٣	١٨	اطلاقهم ·	اطلاقهم)
٤٣	٢٤	له يفادي	له ان يفادي
٤٨	١٣	التاريخ ·	التاريخ)
٥٤	٢	النقاة	النقاء
٥٩	١٣	عبد	عبداً
٥٩	١٥	بالفضل	بالفضل ·
٦٠	٤	لو ان كشف	لو كشف
٦٠ـ٦١		الخطأ ان تقرأ ما قال الاوزاعي بقلب غافل والصواب ان تقرأه عدة مرات وتتأمل فيه ·	
٦٤	١٨	مجرابه	محرابه
٦٥	١١	ونتهاكهم	وانتهاكهم

الصفحة	السطر	الخطـا	الصواب
٦٦	١٦	قضية « الجزائر	قضية الجزائر
٦٨	٧	١٨٩٠ م	١٨٦٠ م
٦٨	٩	العالمية	العالية
٧١	١٠	انقضنا	انقصنا
٧٢	١٣	تنتشر	تنشر
٧٩	١٢	المراكشيين فقد	المراكشيين له فقد
٨١	١١	مطلبهم	لطلبهم
٨٣	١٣	طويل ، هو أن	طويل ، ان
٨٣	١٤	لايكون	لايمكن ان يكون
٨٣	١٦	لأن تلك	وأن تلك
٨٣	١٨	ويخلق ما يرتد	وهو ما يرتد
٨٤	٤	تنفيذا	لتنفيذ
٩٣	١٣	الكمال ٠ اهـ	الكمال ٠) اهـ
١٠٠	٩	والنيات	والثبات
١٠٠	١١	المؤيد	المؤيه
١٠٠	٢٢	ويحبونه) ٠	ويحبونه) ٠) اهـ
١٠٨	١٤	ما لا ونعلم	ما لا نعلم
١٠٩	٦	المطلق) ٠	المطلق) ٠ اهـ
١١١	٢٠	حقه ٠	حقه ٠) اهـ
١١٢	١	محجوا	محجوراً
١١٣	٩	والمداواة	والمداراة
١١٣	٢١	مقية	مقيته
١١٤	٢	يصورة	يصوره
١١٥	١١	احمد وروى	احمد ٠ وروي
١١٦	٧	ادلين	الذين
١٢٤	٥	المعو	المعول
١٢٥	١٢	الموفق ٠	الموفق ٠) اهـ
١٣٠	١٣	وواحداً وواحداً اثر	وواحداً اثر

ردمك : ISBN : 978-9947-24-163-9
الإيداع القانوني : 2007-759

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007


ISBN : 978-9947-24-163-9
9 789947 241639